ملامح من شعر المتنبي الذاتي في طــور الصبا والشبــاب

م. م. رضا كريم محمد
جامعة ديالى – كلية التربية

المقدمة :

قراءة المتنبي مرة بعد أخرى ولدت إحساساً عميقاً وقناعة، بأن ما حظي به الشاعر من مكانة في مملكة الشعر ، وفي نفوس المتأدبين على مرّ الأجيال ، لا يرجع إلى الجانب الفني من شعره – على علو مقامه فيه- فحسب. وإنما يرجع أيضا، في جانب كبير منه، إلى أمرين آخرين، أولهما: ما زخر به شعره من تجربة ذاتية فريدة، انعكست على حياة مجتمعه في عصره. بل امتدت لتنفتح على جوانب متعددة من حياة الإنسان في كل زمان ومكان[1] . ويزيد من أثر تلك التجربة، ويعزز من فاعليتها، أن صاحبها استطاع أن يتوحد معها توحداً كلياً، وأن يندمج فيها اندماجا منقطع النظير. مما أتاح له أن يشحنها بزخم نفسي ، ومدّ عاطفي ظلا يتدفقان ويعملان عملهما مع تجدد الزمن. وثانيهما: يعود إلى ما امتلكه الشاعر من شخصية قوية ثابتة، عرفت كيف تحرك عواطف الناس، وتستقطب أنظارهم، بما ملكت من تجربة حيوية غنية، وبما اتسمت به من عنفوان وكبرياء، وبما عكست من مثال للنفس الإنسانية المكافحة التي كانت تسعى من أجل الصيرورة والتجوهر وإثبات الوجود[2]. إذ واجهت - بلا خوف أو تردد - أحداث عصرها بصبر وثبات، في زمن بلغ فيه الصراع والتناقض الحيوي أشدهما في الثقافة والفكر والسياسة.[3] الأمر الذي أفضى إلى أن تظهر تلك الشخصية في ذلك النمط من شعره ظهوراً طاغياً ومتميزاً، وإلى ان يكون لها حضور فعال وإيجابي فيه.

ومن هنا دفعتني الرغبة في التعرف على أبرز ملامح شعره الذي يصور فيه تجليات ذاته في أطواره المختلفة، مبتدئاً بطور الصبا والشباب أوان تفتح قريحته في الكوفة صبياً، ومن ثم نقلته في البلاد الشامية، إلى زمن أتصاله بسيف الدولة الحمداني سنة 337 هـ.[4] مؤملاً العودة للموضوع في أطواره الأخرى، في بحوث لاحقة أن شاء الله تعالى.

ونظراً لما يرتبط به الشعر الذاتي- بوصفه معبراً عن دواخل النفس الإنسانية ونوازعها- من علاقة بعلم النفس، رأيت من المناسب للمنهج الاستئناس بهذا العلم للوصول إلى غاية البحث من الكشف عما اتسمت به ذاتياته من معالم بارزة. فضلاً عن العناية بحركة ذاته التي رأينا فيها محوراً رئيساً يدور حوله هذا النوع من شعره.

ومن المفيد بهذا الصدد إلقاء نظرة مختصرة على طبيعة الشخصية، [5] وما يكتنفها من عملية نفسية، لما لذلك من علاقة بفهم نشاط المتنبي الذاتي في شعره. وعليه يمكن القول أن التكوين النفسي للفرد يعد واحداً من العوامل التي تحدد سلوك الإنسان، وتؤثر في طبيعة مزاجه وانفعاله في المواقف والأحداث المتباينة التي تعترض مسيرة حياته [6] . ويصدر هذا التكوين، أو الفعل النفسي عن عملية شائكة ومعقدة، تضافرت على صنعها مؤثرات كثيرة ومتشعبة، منها ما يرجع إلى الوراثة، أو البيئة، أو نمط الثقافة والتربية، أو العقد والأحداث التي يخضع لها الفرد، وغيرها[7] .وقد لا يكون يسيراً على البحث فيها التوصل إلى نتائج نهائية وجازمة، لا تقبل الجدل والنقاش. بل إن النتائج النسبية حالة متوقعة في البحوث النفسية عادة، بسبب من طبيعة النفس الإنسانية التي ليس من السهل أن تحدها نظرية، أو أن يحيط بها علم إحاطة كاملة شاملة[8] . وبسبب من حداثة علم النفس الذي لم يخضع للبحث والدراسة إلا في نهاية القرن التاسع عشر على وجه التقريب[9] . ولما يزل ميدانه مفتوحاً لمزيد من الدراسة والكشف. وتأتي صعوبة الإحاطة بحقائق النشاط النفسي أيضا، مما يخضع له الفرد من مؤثرات كثيرة ومتنوعة في حياته المديدة، سواء كان ذلك على مستوى الفطرة، أو طبيعة العلاقة بالمجتمع، أو نمط التربية والقيم السائدة، أو الضغوط المهددة، إلى غير ذلك مما سبق ذكره. فضلاً عما يمكن أن يطرأ على هذا المستوى أو ذاك من تناقض أو تشابك ، أو تبدل مطرد. وكل ذلك بطبيعة الحال ينعكس على نفسية الشخص وردود أفعاله، فيعزز عنده نوعاً من السلوك أو المزاج، ويولد في أعماقه حالة شعورية معينة[10].

وتقوم هذه الأفعال النفسية المنعكسة بمساعدة الشخص وتمكينه من التكيف مع حركة الحياة من حوله، لكي ينسجم مع نفسه من جهة، ومع محيطه من جهة أخرى، ومن ثم ليصبح قادراً على التفاعل المستمر مع واقعه، وتكملة نشاطه في حياة دائبة ليس من صفتها السكون أو الاستقرار على نمط حيوي ثابت [11]. بل هي عرضة للتجدد والتغير والتقلب، سواء كان ذلك لمصلحة الفرد، أو كان ضد نوازعه وميوله، وهو في أحواله كلها يقف مما يلم به موقفاً، ويسلك بإزاء كل حالة تمر به سلوكاً مناسباً، يلبي حاجته، ويرضي تطلعه. حتى وإن لم يكن ذاك الموقف أو السلوك هو الأمثل، أو الأكثر جدوى له في حينه، لكنه مدفوع إليه – في أحواله كلها على حد سواء- تبعاً لما يحتمل في داخله قوى نفسية محركة ومنفردة عند كل شخص [12]. وهذه القوى النفسية هي التي تسم الشخصية يمسها، وتكسبها هويتها، وتميزها من غيرها من الشخصيات الأخرى في هذا العالم. على الرغم مما يظهر على النفس البشرية من أوجه شبه كثيرة[13].

وعليه يمكن للبحث النفسي أن ينجز بشيء من الرضا والقبول، تقويم المفردات النفسية التي تخالط أية شخصية، وأن يحدد أو يتوقع بوجه من الوجوه علاماتها السلوكية والمزاجية فيما تخضع له من مواقف حيوية متنوعة، سواء كان ذلك عن طريق مراقبة الشخصية ورصد أفعالها عن كثب، أو عن طريق إخضاعها للتجربة والأختبار والتحليل، أو النظر فيما تتركه من أثر يمكن اعتماده وسيلة

للبحث والتقويم، أو بأية وسيلة أخرى مقترحة من شأنها أن توصل إلى نتائج مقبولة [14]. وتأسيساً على ذلك فإن دراسة الشخصية بدلالة أثرها الأدبي- على الرغم من نسبية حقائقه ونتائجه – لا يعني إستحالة التوصل إلى حصيلة دراسية مرضية، تكون قريبة من واقع تلك الشخصية وأجوائها النفسية في ظروفها المختلفة. بل إن رصد حركتها الشعورية واللاشعورية في النص الأدبي، وتجميع شتات مواقفها فيما تمر به من أحداث معبراً عنها بالكلمة، قد يعطي صورة لها- أي للشخصية – إن لم تكن مطابقة للأصل تماماً، فهي تظل تحمل الشيء الكثير من سماته وملامحه. [15]

وتباينت وجهات نظر العلماء من أصحاب نظريات الشخصية في تحديد المرحلة التي يمكن أن تتبلور فيها الشخصية، وتكتسب صفاتها المميزة، وخصائصها النفسية الفريدة. فمنهم من قصر هذا الأمر على مرحلة الطفولة دون غيرها من مراحل النمو الأخرى، ومنهم من أولى اهتمامه لمرحلة النضج لما لها من أثر في إثراء جوانب الشخصية، وإغناء تجربتها، ورقي نظامها النفسي. وآخرون نبهوا إلى أثر اللاشعور الجماعي الذي تشترك به مع الآخرين في تشكيل جانب من كيانها وجزء من إحساسها. وفريق رابع لا يقف عند مرحلة بعينها، بل يرى أنها في حالة نمو مستمر، وأن كل يوم يمر بها يكسبها شيئاً جديداً تضيفه إلى مخزونها لتفيد منه عند الحاجة في تحصين ذاتها، وزيادة دفاعاتها، إلى غير ذلك من النظريات والآراء الأخرى. [16]

ويبدو من هذا الاستعراض السريع أن كل من نظّر للشخصية كان قد ركز على جانب بعينه، واهتم بمرحلة دون سواها. وهذا ناشيء فيما نظن من التدرج والتطور اللذين حصلا في دراسة علم النفس عموماً، ومنه فرع الشخصية تحديداً. لذلك لا يمكن أن نتجاهل أثر الطفولة في بناء الشخصية، ودورها الفاعل في توجيه السلوك وتنبيه الإفرازات النفسية، إن في أوانها أو حتى لاحقاً. ولا يمكن أن تكون الطفولة وحدها محركاً لنشاط الفرد النفسي. بل لا بد أن يكون لكل مرحلة إسهام معين في بلورة الشخصية وإنضاجها نفسياً.

والشخصية بتفرعات شبكتها النفسية كلها، ليست جامدة. بل تمتلك استعداداً حثيثاً للتوافق مع ظروفها المليئة بالمستجدات والمفاجآت. وتمتلك قدراً من المرونة يمنحها قابلية التشكل والتقولب مع محيطها[17]. وهذا لا يعني أن شخصية الإنسان يمكن أن تتبدل من موقف إلى آخر، أو حين تنتقل إلى مرحلة تالية من العمر. إذ لا يمكن أن يتصور أحد أن لكل حدث مستجد، أو ظرف طارئ نسخة جديدة من شخصية، هي غير ما استقر لها من صورة في الأذهان سابقاً ، أو حتى ما يمكن أن تكون عليه لاحقاً. على الرغم من قدرتها في التأرجح بين حالة وضدها، أو انحرافها إلى النقيض مما عرفت به من سلوك مثلاً. فمثل هذه الأمور إن حصلت، فإنما تحصل من طبيعة الشخصية في التآلف والانسجام مع الحالة الأكثر إلحاحاً وضغطاً على استعداداتها النفسية، وبالاتجاه الذي يحقق ذاتها، ويعزز من وجودها. والا فإن صفات الشخصية تمتلك ثباتاً إلى درجة معقولة. على الرغم من نموها المطرد وتطورها، وتباين المؤثرات التي تخضع لها، وتتفاعل معها، وتبدلها- أي

المؤثرات- من وقت لآخر في حياتها الحافلة بالتعقيد والتشابك.[18] وينقل أحدهم ما ذهب إليه(موري) من((تفرد شخصية كل إنسان على الرغم من أنه يعترف بوجود بعض تشابه بين كل الناس)).[19]

لذلك فإن محاولة رسم صورة لذات المتنبي في أطوارها المختلفة، لا يعني أن ذاته يمكن أن تتطور إلى غيرها ، أو أن تنسلخ عن جوهرها بحسب الزمن، أو الأحداث الحيوية المستجدة. بل المعني من ذلك رصد ما تميزت به ذاته على مستوياتها النفسية والفكرية والوجدانية، في حالات قوتها وضعفها، أو نجاحها وفشلها، أو حزنها وفرحها، أو أية حالة أخرى من شأنها أن توقظ شعوراً مؤثراً في سلوكه وردود أفعاله، أو تجديد مواقفه إتجاه القضايا والأحداث التي شغلت عقله ووجدانه. فضلاً عن العناية بموضوعات ذاته وما يدفعه من دوافع لأن يعبر عنها ويهتم بها، ولا نريد لهذه الدراسة أن تخرج عن ميدان الأدب إلى الميدان النفسي الخالص. بقدر ما نريد أن نتخذ من النظرية النفسية مرشداً للكشف عن بعض الجوانب الغامضة في ذات المتنبي، بما ينير أرجاء هذه الذات، من غير التفريط بالسمة الأدبية لموضوع البحث في الوصول إلى هذه الغاية.

غلبة الذاتية على شعره في هذه المرحلة:

في هذا الطور من حياته، يكاد العنصر الذاتي في شعره أن يكون أكثر بروزاً من أطواره الأخرى. فمن يطالع ديوانه المرتب تاريخياً،[20] يجده زاخراً بالعديد من القصائد القائمة بذاتها التي خصصها للحديث عن نفسه وشؤونه المحضة، من تلك التي غالباً ما كان يفرغ فيها انفعالاته الحادة، وعواطفه اللاهبة. فضلاً عن مقطوعاته الكثيرة في الموضوع نفسه، كقصيدته ذات المطلع :

كم قتيل كما قتلت شهيد لبياض الطلى وورد الخدود. [21]

والأخرى التي أولها:

قفا تريا ود قي فهاتا المخايل ولا تخشيا خلفاً لما أنا قائل. [22]

والثالثة التي تبدأ بقوله:

ضيف ألم برأسي غير محتشم السيف أحسن فعلاً منه باللمم.[23]

إلى غير ذلك من القصائد والمقطوعات الأخرى التي لا تكاد تخرج عن فلك ذاته.[24] بل إنه لم يقتصر في ذاتياته على منظوماته المستقلة فحسب، وإنما كان يصر على أن ينظم الكثير منها في مقدمات مدائحه، وكأنه أراد لها أن تحل محل النسيب منها.[25]

اصالة تجربته الشعرية والنفسية والحيوية في ذاتياته:

إن إلحاحه في التعبير عن موضوعات ذاته، وما كان يحكمها من طبع وعاطفه، إن عنى شيئاً للدارس، فإنما يعني انشغاله حقيقة وليس إدعاء بتلك الموضوعات، وهيمنتها على فكره ومشاعره، الأمر الذي يستدعيها لأن تكون حاضرة في عقله ووجدانه، كلما زاول قول الشعر، حتى إن كان مدحاً للآخرين. لذلك نزعم أن هذا الحكم الهائل من ذاتياته التي كانت تمثل لباب شعره، من حيث جمال الفن، ورهافة الشعور، وثراء الأفكار، لاشك في أنها كانت تعبر عن تجربة حقيقية عاشها الشاعر في نفسه، وانشغل بها عقله، وشقي بها في واقعه. بل إنها تنبع من قضية ماثلة في روحه، يهمه أمر التعبير عنها، والترويج لها بهذا الشعر المفعم بالأمل تارة، وباليأس تارة أخرى، من قبيل قوله في صباه، يحث نفسه على الاقتحام والوثبة:

إلى أي حين أنت في زي محرم وإلا وحتى متى في شقوة وإلى كم
تمت تحت السيوف مكرماً فثب واثقاً تمت وتقاسي لذل غير مكرم
بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجاجنى النحل في الفم(26)

وقوله من مقدمة قصيدة يمدح فيها علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي، واصفاً ما يعد له نفسه من أمر، مستهيناً بكل شيء دونه:

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر
وأشجع مني كل يوم سلامتي وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر
تمرست بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت أم ذعر الذعر
وأقدمت إقدام الأنني كأن لي سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر (27)

وسيرته تشهد على أنه قتل الأرض رحلة ونقلة بحثاً عما تخيله وفكر به، ودعا إليه في شعره. (28) متحملاً من أجل ذلك أخطار السفر ومشقته في زمن لا يأمن فيه على نفسه حتى الشخص المقيم في داره. (29)
فضلاً عن أنه قد هم بفعل ما نادى به في شعره الذاتي من محاولة القيام والخروج على السلطة، وسجن بذلك كما هو معروف من أخباره. (30) ووثق الشاعر حادثة سجنه في بعض شعره، ومنه قوله:

كن أيها السجن كيف شئت فقد وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصة لم يكن الدر ساكن الصدف (31)

لقد وعى المتنبي نفسه، تلك النفس الآفاقية التواقة إلى كل ما من شأنه أن يرفع الإنسان ويعزه ويشرفه، لكنه وجدها تعيش في الحضيض، حيث الفاقة والخمول والتعسف، فانتفضت روحه، وتحركت حميته للانقلاب على واقعه الفاسد، مفكراً في واقع آخر غيره، ينعم فيه الإنسان بحقه من السيادة والأمن والعدالة. فمن صورة له يتحرق فيها شوقاً لشن حرب شاملة:

أقراراً ألذ فوق شرار ومراماً أبغي وظلمي يرام
دون أن يشرق الحجاز ونجد والعراقان بالقنا والشام (32)

ووعى عصره، ذلك العصر الذي انحدر بأهله وساسته ومثله وقانون حياته إلى درك أسفل. حيث الجور والتشرذم وفقدان الأمن وحكم الأجانب. (33) فلا يملك إلا أن يتشظى ويتمزق حين يرى هذه الصور الخابية من الناس والملوك، لا سيما حين يقارن نفسه بهم، ويتملكه شعور غريب وكأنه مخلوق يعيش خارج عصره، كما يظهر من أبياته:

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
بأجسام يحر القتل فيها وما أقرانها إلا الطعام (34)

فالرجل كان صاحب قضية كافح من أجلها بكل ما يملك من وسائل أيسرها الكلمة، وكان صوتاً مميزاً من بين شعراء عصره، لا من حيث الفنية العالية لشعره فحسب، بل من حيث الموضوعات الحساسة التي طرحها في ذلك الشعر، لا سيما الذاتي منه. فاختار بذلك طريق المواجهة الصعبة التي لم يقدر أنه بإمكانياته المحدودة – في كونه فرداً يفتقر إلى عصبة تؤازره وتشد من عضده – لا يمكن له أن يفعل شيئاً ناجزاً حين أختارها.

فقل في حاجة لم أقض منها ... على شغفي بها شروى نقير
ونفس لا تجيب إلى خسيس ... وعين لا تدار على نظير
وكف لا تنازع من أتاني ... ينازعني سوى شرفي وخيري
وقلة ناصر جوزيت عني ... بشر منك يا شر الدهور. (35)

وغرته حماسته وموهبته وعلو نفسه بأنه أولى من غيره في خوض الزحام لتحقيق ذاته، في الوقت الذي قد شق الزحام إلى غاياته من هو دونه رأياً وشجاعة وحسباً.(36) لكنه وهم حين تخيل أنه سيجد من يؤيده ويناصره في دعواته وأفكاره، ويوافقه على طروحاته في تعرية الواقع الفاسد وتقويمه، ذلك الواقع الذي يخضع له الجميع، وتعاني من وطأته الأغلبية. على الرغم مما كان يذكر في شعره من أن له بطانة يرون رأيه فيما يطلبه من الملك الذي يعده حقاً من حقوقه:

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ ... كأنهم من طول ما التثموا مرد كثير
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا ... إذا اشتدوا قليل إذا عدوا وضرب
وطعن كأن الطعن لا طعن عنده ... كأن النار من حره برد رجال كأن
إذا شئت حفت بي على كل سابح ... الموت في فمها شهد (37)

فهذا النمط من القول ومثله كثير، يدل بما لا يقبل الشك بأن الرجل كان يعمل ويخطط ويعد العدة للقيام. ولكن يغلب على الظن بأن خطته لم تنضج، ولم تجد المناخ الملائم للتنفيذ، ففشلت في مهدها، وآل مصيره إلى الاعتقال.(38)

ولذلك فإن من يمعن النظر في ذاتياته جيداً، يستبعد بأن أماني وأحلاماً براقة لا رصيد لها من الواقع كانت تحركه لأن ينشئ ما أنشأ من شعره الثائر الملتهب. هكذا جزافاً من غير هدف ماثل في ذهنه يستحق جهده ومخاطرته، ومن غير دوافع حقيقية ملحة تحركه إلى ذلك كله. وإلا فمن غير المعقول أن يجازف الرجل بحياته حين لا يرعوي عن نظم مثل هذا الشعر الذي يعج بالتحريض على الثورة، مما يثير حفيظة القائمين على الحكم، ويغضب أهل الشأن من أرباب الدولة والنفوذ. اللهم إلا أن يكون صاحبه مجنوناً أو معتوهاً، لا يقدر ما يحدق به من أخطار من جراء أقواله وأفكاره التي تعد محذورة في الأعراف السياسية، من غير أن يتحفظ حين يقذف بها في وجه العلية من القوم وأصحاب السلطان. لا سيما أنها أقوال وأفكار لها موقعها من وجدانه وعقله، ولها مكانها المتميز في ميدان التأليف الفني والموضوعي للشعر الذي كان يمثل فكر القوم آنذاك، ووسيلتهم الخبرية المهمة.

لذلك فنحن نرجح أنه كان يعني الذي يقوله في ذاتياته، من غير أن يكون قد كلف نفسه في إنشائها تزجية للوقت، أو ترويضاً للفن، أو طلباً للشهرة، أو لعباً مع خيال، أو معاكسة لا مسؤولة لملوك العصر وأهله وترهاته. وهل يتسنى لنا أن نعلل تلك الذاتيات بمثل هذه التعليلات الجوفاء؟ وهي تطفح عاطفة وتوتراً، ثملة بألمه وأمله وإرادته، وكأن قطعاً من نفسه مشدودة إلى كلماتها شداً، أو كأن عبقاً طرياً يرطب حروفها بنداه، كقوله من مقدمة قصيدة يمدح بها علياً التنوخي:

أحق عاف بدمعك الهمم ... أحدث شيء عهداً بها القدم
وإنما الناس بالملوك وما ... تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ... ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطأتها أمم ... ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه ... وكان يبرى بظفره القلم
إني وإن لمت حاسدي فما ... أنكر أني عقوبة لهم
وكيف لا يحسد أمرؤ علم ... له على كل هامة قدم. (39)

فأي معايير لها من الدلالة على صدق التجربة وأصالتها وحيويتها أكثر من هذا الضرام الذي يكاد يلهب حروفه وكلماته، بل يكاد ينزع نفسه من أصول عروقها. لذلك نحن لا نشك في أنه كان يعيش الحال التي يصفها في شعره الذاتي، وأنه لم يكن على غي. أو ضلال مما قد تجلبه إليه من متاعب، وما قد يناله بسببها من أخطار، بل نقدر بأنه حسب لكل ذلك حساباً دقيقاً طويلاً.

فلقد وطن المتنبي نفسه على الموت، لا زهداً فيها، بل كرماً منه بها، لإيمانه بشرعية ما يطلب ونفاسته. من أجل ذلك كان لا يرى في الموت مقاتلاً إلا حياة ومأربا، فمن صوره التي يؤطر فيها جمال الموت الذي يريد – أن كان هناك موت جميل قوله:

ردي حياض الردى يا نفس واتركي ... حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذرك على الأرماح سائلة ... فلا دعيت ابن أم المجد والكرم. (40)

إلى صورة أخرى مماثلة:

فموتي في الوغى عيشي لأنـــي ... رأيت العيش في أرب النفوس. (41)

مناقشة وتوجيه لبعض اراء الباحثين في ذاتياته:

ولا ينصف الشاعر من يذهب إلى أن شعره الذي يتحدث فيه عن نفسه ما هو إلا تصوير من الخيال و ((جوع وأحاديث ... وفلسفة في الهواء ليس وراءها طائل ولا غناء)). (42) بل نرى في هذا الشعر جوعاً إلى الصيرورة والكينونة التي افتقدها المتنبي في إنسان عصره، وذاك الشعر يعبر تعبيراً حقيقياً عن واقعية الفلسفة التي جعل المتنبي من ذاته المعذبة المتطلعة موضوعاً إنسانياً كبيراً لها. ويتجلى كل ذلك في جنون هذا الرجل بما انطوت عليه نفسه من الخواطر والهموم التي أصبحت

حديث الناس، وغرامه بها حد الهيام، بل الغناء. وهل بإمكاننا أن نجد من تفسير اخر لما يدفع المتنبي لأن يقول قوله الأتي؟

فمالي وللدنيا طلا بي نجومها ومسعاي منها في شدوق الأراقم
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذي شطره دم فتسقى إذا لم يسق من لم يزاحم.[43]

وإلا فإن الرجل لم يدخر شيئاً من طاقته ووسعه في السعي الحثيث لما كانت تحدثه به نفسه من أحاديث المجد والعظمة والنهضة، سواء كان ذلك بالقول أو النقلة أو الفعل، ولكن الحظ لم يحالفه في الظفر بما كان يهيئ له نفسه وعدته من الظفر به، ومثله في ذلك مثله في قوله :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن[44]

ويظلمه من يذهب إلى أنه سجن((في جريمة خطيرة من جرائم الرأي، قوامها الردة، والخروج على السلطان، والدعوة إلى تسليط السيف على المسلمين)). [45] أو أنه كان ((داعية من دعاة الفوضى وصورة من صورها)). [46] فضلاً عما يذهب إليه من أن كبرياء الشاعر وفخره بنفسه لا يخرج عن كونه سخفاً وضلالاً. [47]
وبعض هذه الدعاوي –التي لا يخفى تحامل صاحبها على الشاعر- تصح لو كانت الدولة التي حاول المتنبي أن يخرج عليها هي الدولة العربية المسلمة التي تحترم الإنسان والقانون والعدالة، لا دولة الغرباء من العبيد، والأقاليم الممزقة نهباً واستلاباً، ولا الدولة التي عطل إسلامها، وأهين إنسانها عربياً كان أو غيره، وعمت فيها الفوضى والمظالم. [48] وعليه فإن هذه الأحكام القاسية وأمثالها،لا تمت إلى واقع المتنبي وشعره بصلة، وليس من شأنها إلا أن تجرده من تجربته الأصيلة، وإحساسه بالواقع الذي ينتمي إليه من جهة، وأن تخفف من حدة صوته الرافض لذلك الواقع الفاسد من جهة ثانية، وأن تشوه صورة كفاحه وتعتم على ألوانها الإنسانية الزاهية من جهة ثالثة. وماذا يبقى من المتنبي أن جرد من كل ذلك؟ ومع كل ذلك فلا أظن أن أحداً بمقدوره أن يسلبه روحه الخالدة - شعره-، تلك الروح التي ركبت خيالاً مارداً حمل الشعر مالا يطيق حمله من زخم أفكاره ونظراته وعواطفه.
لا سيما ما يتعلق منه بالتمرد والثورة، أو التنبيه على فساد الحكم والحكام، أو نقد موازين المجتمع المختلة، إلى غير ذلك من الموضوعات التي عكست صورة الواقع المريض في عصره. [49] فهذا توقيع كلمة:

أفاضل الناس أغراض لدى الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وإنما نحن في جيل سواسية شر على الحر من سقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خلق تخطي إذا جئت في استفهامها بمن
لا أقتري بلداً إلا على غرر ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم ملكـــاً إلا أحق بضرب الرأس من وثن[50]

وهذا توقيع كلمة أخرى:

أذم إلى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عـــم وأسهدهم فهد وأشجعهم قـرد [51]

بعض آثار الذاتية على نفسه وشعره:

لقد مثلت حالته الذاتية إنموذجاً صارخاً للإنسان المهدد في عيشه وحريته وسلامته. الإنسان الهارب من قدره، والمقبل بكل ماأوتي من قوة ووسيلة على أن يحيا حياة الأمن والعزة والسيادة. فقد كان يعيش في أتون محتدم من صراع النفس، بين واقع هو فيه، وآخر يسعى ليكون عليه. يحب حياته ويمقتها في الوقت نفسه، بحبها لأنه يعتقد جازماً بأنها حق من حقوقه، ومن أعراف الخليقة أن يتمتع بهذا الحق من غير أن يسلب منه، أو يضايق فيه، أو يكدر عليه. ويمقتها لأنه لا يجد لها لذة أو معنى في الحال التي هو عليها. فلا يملك بين هذا وذاك إلا أن يبالغ في الإقدام عليها، والتشبث بها، ويبالغ كذلك في الهرب منها، وعدم الركون إليها، ويبالغ أيضا في الإكثار من تقديم الذرائع التي تسوغ إقدامه وهربه، وتبرر حديثة الذاتي ومعاناة نفسه عن ذلك كله، في شكوى مرة ملأت صفحات شعره. ولنا أن نتأمل فيما يصف من مسيره في البوادي، وما لقي في أسفاره، بعد مغادرته بدراً، مصوراً جانباً من جوانب قصة مأساوية بطلها الشاعر نفسه:

عذيري من عذارى من أمور سكن جوانحي بدل الخدور
ومبتسمات هيجاوات عصر عن الأسياف ليس عن الثغور
ركبت مشمراً قدمي إليها وكل عذافر قلق الظفور
أواناً في بيوت البدو رحلي وآونة على قتد البعير
أعرض للرماح الصم نحري وأنصب حر وجهي للهجير
وأسري في ظلام الليل وحدي كأني منه في قمر منير
فقل في حاجة لم أقض منها على شغفي بها شروى نقير
ونفس لا تجيب إلى خسيس وعين لا تدار على نظير
وكف لا تنازع من أتاني ينازعني سوى شرفي وخيري
وقلة ناصر جوزيت عني بشر منك ياشر الدهور
عدوي كل شئ فيك حتى لخلت الأكم موغرة الصدور
فلو أني حسدت على نفيس لجدت به لذي الجد العثور
ولكني حسدت على حياتـــي وما خير الحياة بلا سرور.[52]

وبسبب من هذا الاستلاب الإنساني والحيوي، ولد حزنه الشديد الذي لون شعره الذاتي بلونه، وارتفع صوت ألمه الممض الذي راح يضرب به على أوتار كلماته. فقد كان يشعر أنه بإمكانياته الفردية في مقابل قوة عصره لا يمكن له أن يدرك مطالب نفسه منه، فضلاً عن إدراكه النجاة بهذه النفس حين يرضى بها قسماً. كما يشعر في الوقت نفسه أن بتلك الإمكانية المحدودة قد يعجز في إدراك غايته منه (أي من عصره) إذا ما اقتحم عليه فبعد عليه هذا وذاك، وظل يغذ السير خائفاً

ومؤملاً بين هذين البعدين الشاسعين، مستنزفاً قوته ونشاطه، وفكره وعاطفته، تعذبه المسافات، وتؤلمه الخطى، ويهده التعب. يركن إلى صبره مرة، ويشكو حاله اخرى، ويتحين فرصة جديدة للوثوب مرة ثالثة. قال من مقدمة قصيدة يمدح بها علي بن محمد بن سيار التميمي:

وما سكني سوى قتل الأعادي ... فهل من زورة تشفي القلوبا
تظل الطير منها في حديث ... ترد به الصراصر والنعيبا
وقد لبست دماؤهم عليهم ... حداداً لم تشق له جيوبا
أدمنا طعنهم والقتل حتى ... خلطنا في عظامهم الكعوبا
كأن خيولنا كانت قديماً ... تسقى في قحوفهم الحليبا
فمرت غير نافرة عليهم ... تدوس بنا الجماجم والتريبا
يقدمها وقد خضبت شواها ... فتى ترمي الحروب به الحروبا
شديد الخزاونة لا يبالي ... أصاب إذا تنمر أم أصيبا (53)

وتأسيساً على ذلك أصبح ميدان إبداعه مفتوحاً على مصراعيه، يلوح له الأمل تارة فيغذ السير حثيثاً نحوه، ويصدمه اليأس تارة أخرى، فيمعن في النكوص والإنكفاء على ذاته. مرة يفتح له الرجاء بابه فيقدم متفائلاً مستبشراً، ويلذعه الفشل أخرى، فينسحب قانطاً مغضباً. وهو لا يفتأ في حالتيه كلتيهما يناجز ما يثيره فيهما بكلمات هادرة هائجة، تاركاً خلفه هذا السعير النفسي الذي عهد في شعره، والذي لمايزل ملتهباً بركام ذاته، وأنقاضها المهشمة. (54) كقوله:

كذا الدنيا على من كان قبلي ... صروف لم يدمن عليه حالاً
أشد الغم عندي في سرور ... تيقن صاحبه عنه آرتحالا
ألفت ترحلي وجعلت أرضي ... قتودي والغريري الجلالا
فما حاولت في أرض مقاماً ... ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق كأن الريح تحتـــي ... أوجهها جنوباً أو شمـــالاً (55)

لقد خلق المتنبي من ذاته موضوعاً شعرياً حيوياً، لم يكن له بد من الوقوف عنده طويلاً، وذلك نتاج ما كان يحسه في نفسه من إحساس قوي بالتفوق والعظمة. (56) إذ كان يغمره شعور بأنه يملك من المواهب والمزايا الشخصية ما لا يملكه الآخرون، ودفعه هذا الشعور الغامر – الذي أصبح في ظنه حقيقة من حقائق نفسه- إلى أن يعتقد بضرورة امتيازه وتفرده عمن سواه، وإلى أن يفكر في طلب الرئاسة التي كان يعدها حقاً من حقوقه المغتصبة. ومن هنا أصبحت ذاته العالية قضية من قضاياه المثيرة، في عصر كان ينظر إليه بأنه لا يقدر النابهين من أبنائه، إن لم يتجاهلهم، أو يكن لهم حرباً، فمن تعاظمه قوله:

أمطْ عنك تشبيهي بما وكأنه ... فما أحد فوقي وما أحد مثلي (57)

وقوله:

إن أكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد (58)

وقوله أيضا:

وكيف لا يحسد امرؤ علم له على كل هامة قدم (59)

ومما كان يعده من ذنوب عصره، هذا الذي كان يراه من تفاوت رتب الناس وأقدارهم، وتوزيعها غير العادل، ويتجلى ذلك في قوله:

ولو لم يعل إلا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام
ولو لم يرع إلا مستحق لرتبته أسامهم المسام

000000000

ولم أر مثل جيراني ومثلي لمثلي عند مثلهم مقام
بأرض ما اشتهيت رأيت فيها فليس يفوتها إلا الكرام
فهلا كان نقص الأهل فيهـــا وكان لأهلها منها التمـــام (60)

احساسه بالغربة وانعكاس حالة الصراع بين واقعه وطموحه في ذاتياته:

لقد صور المتنبي حالة الصراع التي كان يعيشها مع عصره تصويراً دقيقاً بليغاً، وكأنه لم يخلق إلا ليخوض ميدان الصراع معه، وإلا ليواجهه بنار كلماته. فقد كان وعصره على طرفي نقيض، وكان له خصماً متطرفاً، بكل ما تدل عليه، وما توحي به لفظتا الخصومة والتطرف من دلالة وإيحاء. فذاتياته في هذا الطور من حياته مليئة بعواطف التوثب والنقمة والسخط، فهي تمور حقداً وحنقاً على كل شاخص ودلالة وتقليد في هذا العصر، أبتداء من الناس وملوكهم، ومروراً بحركة الحياة وتفاصيلها، وانتهاء بالدرب والجماد والحجر. فلم يكن هذا الشاعر المتمرد ليطمئن إلى عصره، ولا عصره ليطمئن إليه. (61) فقد كانت علاقته به من السوء ما لا مزيد فوقه، بحيث يعجز الوصف إذا ما أراد لها توصيفاً، وأقل ما يمكن أن يقال فيها أنه كان يحكمها العداء والكره الشديدان، ويطغى عليها الرفض لكل ما هو سائد، وعدم الرضا عن كل ما هو ماثل. فمن قول له:

أفكر في معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادي
زعيم للقنا الخطي عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي (62)

إلى قول آخر:

أقراراً ألذ فوق شرار ومراماً أبغي وظلمي يرام
دون أن يشرق الحجاز ونجد والعراقان بالقنا والشام (63)

وقول ثالث:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم[64]

وقول رابع يصور فيه مدى العداوة المستحكمة بينه وبين دهره:

عدوي كل شئ فيك حتـــى لخلت الأكم موغرة الصدور [65]

لقد كان المتنبي يعيش غربة قاتلة في داخله، بلغت حد الانفصام عما كتب له أن يحيا من حياة. بل الأكثر من ذلك أنه أنكر انتماءه لكذا حياة، نافياً حقيقة أن يكون من أحد موجوداتها، و ماذاك إلا برهان قوي على شدة انتمائه إليها، وقربه منها. الأمر الذي جعله يتعرف بدقة على طبيعة حركتها، وما تقوم عليه من أسس وأصول. تلك الحركة الملتوية، والأصول المنخورة التي أدرك فيهما سلبية تتعارض مع فكرة وهواه. ولو لم يكن قد دار مع حركة حياته ذلك الدوران العنيف الذي بلغ فيه حد الذوبان، لما استطاع أن يدرك منها ما أدركه، ولما حكم عليه بأن يشعر شعوره الأليم الذي أوشك فيه على التمزق والتشظي. فضلاً عما ألجأه إليه قدره من أن ينفث حممه المحرقة بوجه تلك الحياة.

حياته التي ضاقت عن إستيعاب ما يمتلئ به صدره من ذلك كله وغيره. [66] فمثل من إحساسه بالغربة:

أنا في أمة تداركها اللـــــه غريب كصالح في ثمود. [67]

ومثل آخر لها:

وما أنا منهم بالعيش فيهـــم ولكن معدن الذهب الرغام [68]

ومثل من دورته العنيفة في فلك حياته، وما يقذفه من حمم البركان الهائج في صدره، من القصيدة التي رثى بها جدته:

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً
ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة ولا واجداً إلا لمكرمة طعماً
يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبغي ما ابتغي جل أن يسما
كأن بنيهم عالمون بأنني جلوب إليهم من معادنة اليتما

.....

كذا يادنيا إذا شئت فأذهبي ويا نفس زيدي في كرائهها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما[69]

فقد كان من أولئك المتمردين الذين لا ينسجمون مع واقعهم بسهولة، لا سيما إذا تعرض واقعهم ذاك إلى شروخ تتعارض وهوى النفس والطباع. ويعضد ذلك ما تميز به طبعه من الجد وقوة الشكيمة[70]. ومن كانت هذه صفاته لا يرضى بوهن الحياة وآنحرافها وزيفها، ولا يقنعه منها ترف زائل، أو لذة عابرة، مقابل سلب الإرادة والروح والشخصية. بقدر ما كان يتطلع إليه من قوة تلك الحياة التي تحفظ الحقوق وترعى الذمم، وتمكن الإنسان من التعبير عن إرادته، في ظل حكم

عربي إسلامي صريح، لا حكم الفوضى والأغراب والعقم، وأن يحيا بسلام وأمان، لا أن يحيا حياة الخوف والذل والإضطهاد، مهدداً في روحه وفكره وملكه. تلك هي- على ما أظن – بعض القيم والمعطيات التي تحركه لأن ينشئ ما أنشأ من ذاتياته. ومن هنا نذهب إلى أنه لم ينشد الملك حباً بالملك، أو لكي يتسلط به على الآخرين، بل لكي يتمكن بوساطته من أن يعيد إلى الحياة توازنها، ويزيح عن وجهها ما لحقه من عتمة. ومثل مما كان ينادي به من هذه المعاني والقيم- مستفادة على الأطلاق من ترسيخه لمعنى العزة ورفضه الذل – قوله:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوس الرماح أذهب للغيظ وأشفى لغل صدر الحقود
لا كما حييت غير حميد وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز في لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود (71)

ومثل آخر لما يحس به من اختناق، وما يشعر به من ضيق وبرم في جنب من يعاصرهم من الناس، ونقده الساخر اللاذع لنوعية الحكام الذين يلون أمرهم آنذاك، وشعوره بإفتراقه عنهم جميعاً، فضلاً عما يشعر به من الغبن في وجوده بينهم:

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثلما تهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام (72)

ومثل ثالث عن طبيعة المجد الذي ينشده، وفلسفة الحياة التي يحلم بها:

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوت السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنمـــا تداول سمع المرء أنمله العشر (73)

بعض سمات التعبير الذاتي في شعره:

أما طبيعة تعبيره عن شعره الذاتي ومجريات عواطفه، فقد كانت من الحدة والعنف والتدفق بمكان. بفعل ما كانت تنفتح عليه ذاته من ميادين شاسعة، ومديات غير محدودة، من اختلاف الرؤية بينه وبين الآخر(أي الواقع، أو من يخضع له، أو ما يخضع له من قوانين حيوية تحكمه). وبفعل ما يقترن بهذا التعبير من دوافع شعورية أصيلة لا تملك إلا التدفق بقوة بالاتجاه الذي يجري فيه الحدث الذاتي.، أي أن ذاته تتلبس موضوعها تلبساً كاملاً، وهذا الشكل من التأثر بأحداث ذاته محتوم عليه، لما كان يعيشه من تناقض شديد وعنيف بين ما يريد وبين ما لا يريد، ولبعد المسافة بين طرفي صراعه في الموقف والفكر والرؤية . فضلاً عما كان يواجهه من الفشل، أو من ضآلة المتحقق في مقابل ما يبذله من جهد باتجاه ما يتطلع إليه، وما يتمخض عن كل ذلك من تأزم نفسي، وتوتر وجداني تركا ظلالاً واضحة على عمله الإبداعي الذاتي، حتى خرج بالصورة التي أعطته لونه الصارخ (74). إذ كان

المتنبي في ذاتياته يجند كل جوارحه ويزج بها في تعبيره ومن هنا أمتلك نشاطه النفسي حضوراً كبيراً في هذا الموضوع. الأمر الذي أدى إلى أن تظهر فيه (أنا) الشخصية ظهوراً بارزاً وفاعلاً، لكن أناه تلك لم تكن من نوع الأنا السلبية المحكومة بالأثرة ، أو المحدودة الحركة في إطار ضيق من الهموم الذاتية البحتة، أو المطالب الشخصية الفجة. وهي أيضا ليست (آنا) خيالية غارقة في أوهامها وأحلامها البراقة.وإنما هي (آنا) موجبة تنطلق من الواقع وتتحرك في أرضه الشاسعة. وتعبر عن فكر المجموع وما يرجه من هموم وتطلعات، وتستلهم إنسانية الإنسان وما يصبو لأن يكون عليه من كينونة، وبهذا كله استطاعت آناه أن تشد الآخرين إليها، وتعمل على جذبهم واستقطابهم. [75] وأجد أن جل شعره الذاتي ينطبق عليه ما سلف من أحكام، لكن من المناسب أن نقف عند شواهد منه، فمن قول له يصور فيه حجم مطلبه وبعد همته، على ما يظهر فيه من دقة عواطفه:

ليس التعلل بالآمال من أربي ولا القناعة بالإقلال من شيمي
ولا أظن بنات الدهر تتركني حتنى تسد عليها طرقها هممي [76]

إلى قول آخر مصوراً فيه ثباته ومضاءه في توتر وجداني عنيف:

أمثلي تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان إلي شخصاً لخضب شعر مفرقه حسامي
وما بلغت مشيئتها الليالي ولا سارت وفي يدها زمامي [77]

ومثل لتأزمه النفسي، لتأخر الظفر بما يسعى إليه، في مقابل ما يبذله من جهد فيه:

فقل في حاجة لم أقض منها على شغفي بها شروى نقير [78]

ومنه أيضا:

لله حال أرجيها وتخلفني وأقتضي كونها دهري ويمطلني[79]

ومثل لآناه الكبيرة التي لا يملكها إلا العظماء حقاً من البشر:

أي محل أرتقي أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق اللـه وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي [80]

فهو يصور أنه بلغ من رتبة سموه وعلو شأنه ما لا رتبة بعدها تستحق أن يفكر فيها ويرتقي إليها، وبلغ من العظمة مبلغاً يصغر بجانبه كل عظيم يختبئ تحت حراسة سلطته. فضلاً عن أن يتقي من كان هذا حاله وأن ما خلق الله من هؤلاء المملكين الذين يحسبون أنهم عظماء في ملكهم، وما لم يخلق من أمثالهم بعد، ليسوا في مقياس همته إلا كشعرة تافهة لا تلفت النظر في شعر مفرقه. هكذا أفهم أبيات المتنبي هذه، وللآخرين أن يفهموا منها ما بدا لهم. [81]

من كل ما مر يتضح بأن مشكلات صراعه، قد تمكنت من تأدية دورها في إيقاظ طاقته الإبداعية وتفجيرها. إذ كلما كان الصراع أشد قوة، كلما كان التعبير عنه أشد ملامسة لمواطن الشعور، بل أشد إثارة للمناطق الأكثر حساً فيه. فليس هناك إبداع بالمرة ما لم يكن هناك صراع يغذيه ويمده بالديمومة والثراء.[82]
وبسبب من ذلك ظلت قواه النفسية في حالة استنفار دائمة، وبقيت مشاعره عرضة للإثارة والاستفزاز. وهكذا كان المتنبي مشحوناً بالفعل الشعري، لأنه لم يتمكن من أن يجد حلاً لمشكلاته ، أو تسوية لخلافاته، أو تحقيقاً لطموحاته. بل ظل صراعه مع ما يهمه من هذا وذاك قائماً حاضراً، ينمو ويتطور ويتدرج، اخذاً أبعاداً جديدة، ومسارات متفرعة، لكنها جميعاً لا تكاد تخرج عن خطها العام الذي كان لها أصلاً ومنطلقاً. ولكنه مع هذا وذاك بقي محروماً من أكثر الأشياء قرباً إلى ذاته، ضماناً كأشد ما تكون عليه حالات الظمأ، للفوز بما كان يمني به نفسه، أو الظفر بما أجترح له فكره. فكان ذلك من العوامل القوية التي ساعدت على أن يستمر توقد الإبداع في صدره مستعراً، وعلى أن يرتفع صوت الشعر في حنجرته مدوياً، في طوره هذا بخاصة، وفي الأطوار التي تلته بعامة. ومثل لما في صدره من نار أزلية متوقدة، ولما في شفتيه من ظمأ مستديم:

أذا قني زمني بلوى شرقت بها ... لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا
وإن عمرت جعلت الحرب والدة بكل ... والسمهري أخاً والمشرفي أبا
أشعت يلقى الموت مبتسماً ... حتى كأن له في قتله أربا
قح يكاد صهيل الخيل يقذفه ... عن سرجه مرحاً بالعز أو طربا
فالموت أعذر لي والصبر أجمل بـي ... والبر أوسع والدنيا لمن غلبا[83]

اثر مرحلة الشباب في اندفاعه لتحقيق ذاته، وكيفية تعامله مع الزمن:

إن طوره هذا من أخصب أطواره في التعبير عن شؤونه الذاتية، ومن أكثرها نشاطاً واندفاعا نحوها. بل كان يسابق زمنه ويستحثه ليصل إلى مبتغاه منها، ويتعجل عمره حتى يستطيع أن يفعل شيئاً أي شئ في سبيلها، ويخشى أن تمضي الأيام والسنون، وينقضي عصر قوته وشبابه قبل أن يتمكن من إدراك مطامحه وأشياء نفسه. حتى أنه ليروعه تبكير الشيب في فوديه، ودوران عجلة الزمن أمام ناظريه، ويود لو أن باستطاعته أن يمحو ذاك ويوقف هذه. حيث كان يؤمل في هذا الأوان من عمره أن يتمكن من حسم الموقف لصالحه، فقد فطن منذ وقت مبكر بأن زمن الفتوة والشباب زمن أمثل لإدراك المطالب والمنى. لا سيما إذا كانت تلك المطالب تحتاج إلى قوة وحركة، كمطلبه من الحكم. ويتجلى استباقه زمنه للمعالي، وحث نفسه إليها في قوله:

إلى كم ذا التخلف والتواني ... وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي ... ببيع الشعر في سوق الكساد
وما ماضي الشباب بمسترد ... ولا يوم يمر بمستعاد
متى لحظت بياض الشيب عيني ... فقد وجدته منها في السواد

متى ما ازددت من بعد التناهـي فقد وقع انتقاصي في ازديادي[84]

كما يتجلى حرصه على التشبث بالشباب، وحذره من أن يفارقه على عجل، في قوله:

ولقد بكيت على الشباب ولمتي مسودة ولماء وجهي رونق
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفني أشرق[85]

ومما صور فيه حزنه وارتياعه من هجوم الشيب عليه، قوله في صباه:

ضيف ألم برأسي غير محتشم السيف أحسن فعلاً منه باللمم
أبعد بعدت بياضاً لا بياض له لأنت أسود في عيني من الظلم [86]

ولا غرابة فيما كانت تدفعه إليه نفسه، فقد طغت عاطفته على فكره ، وغلب خياله البعيد على واقعه القريب في مرحلته هذه. لا بمعنى أنه كان غارقاً في أوهامه وأحلامه، بل المعني أنه كان قليل التروي والتعقل والأناة بين يدي شباب مثقل بالهواجس والتطلع والعناء. فضلاً عن أن الإغراق في العاطفة والخيال، وسيادة روح المغامرة والاندفاع لاكتشاف الذات وتحقيق هويتها، ومحاولة الخروج عن المألوف من حياة الجماعة، أو التمرد على ما تخضع له من أعراف وقوانين، هي ظواهر سلوكية تبرز عند الفرد في مرحلتي المراهقة والشباب. على الرغم مما يحصل فيها من تفاوت نسبي بين شخص وآخر، من حيث التهور والعقلانية، أو الطبع والشذوذ[87]. وليس المتنبي بدعاً من بين الأشخاص الذين يخضعون لقانون التطور والنمو في مراحل حياتهم المختلفة، بحسب ما تتميز به كل مرحلة من مظاهر جسمية وعقلية ونفسية. بل كان واحداً من هؤلاء الناس الذين خضعوا وسيخضعون لظاهرة التدرج العمري بما يظهر على كل محطة فيها من سمات وميول، إلا أنه كان لا يقاس بغيره فيما أتسم به من ذلك كله.

لكن ما يشغل الفكر ويثير الاهتمام، أن شخصيته، لا سيما في مرحلته هذه قد تمثل ظاهرة إنسانية نادرة، إن لم تكن متفردة. فقد كان صبي السن، ولكنه يرى كهل الروح والتفكير، مثقلاً معنى يحمل من الهموم والمهمات ما لا مزيد فوقهما. فلم يعش هذا الشاعر صباً أو شباباً مألوفاً كأقرانه ، ولم تكن ميوله مما يعهد من ميول الفتيان الآخرين في مثل سنه. بل كان صباه وشبابه يتسمان بالافتراق عن هوى الجماعة في أغلب مفرداتهما، فمنذ وقت مبكر جداً وجدناه في شعره كثير التطلع، بعيد الطموح، عالي الهمة، يسرح خياله الغض وليس غضاً في أمور جسيمة عظيمة، ويفكر تفكير مهموم موتور، مثقل معنى، في نفسه ومجتمعه ومسيرة الحياة من حوله. يحب الخشونة والرجولة وجلائل الأفعال، ويعزف عن الخمرة واللهو والنساء، ويبتعد عن إغراءات الحياة، وما يمكن أن ينجرف إليه الفتيان والشبان من أمثاله، ويندب نفسه للتوثب والاقتحام، ويمنيها بالانقضاض على السلطة، ويكثر من التعرض للحكم والحكام بالذم والتهديد والوعيد، ويعد في سبيل ذلك نفسه للحرب والفروسية، ويتغنى بهما في شعره غناء عاشق متيم

ولهان[88]. وكأنه وحده من عقد عليه العزم، وأنيط به تغيير الواقع الفاسد إلى آخر أكثر إشراقاً وقبولاً. بل قد يعطي الحق لنفسه فيما ندب نفسه إليه من ذلك كله، وكأنه يرى فيها الشخص المخلص من الظلم، والمنقذ من الضلال. ولنا أن ننظر الآن إلى مشاهد من صورته الشخصية هذه، كما تصورها إحدى قصائده الذاتية العامرة التي نظمها في صباه:

سيصحب النصل مني مثل مضربه ... وينجلي خبري عن صمة الصمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها ... حتى كأن بها ضرباً من اللمم
قد كلمتها العوالي فهي كالحة ... كأنما الصاب مذرور على اللجم
بكل منصلت مازال منتظري ... حتى أدلت له من دولة الخدم

....

ردي حياض الردى يا نفس وأتركي ... حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذرك على الأرماح سائلة ... فلا دعيت أبن أم المجد والكرم
أيملك الملك والأسياف ظامئـــة ... والطير جائعة لحم على وضم

من لو رآني ماء مات من ظمأ ... ولو عرضت له في النوم لم ينم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم

فإن أجابوا فما قصدي بها لهم ... وإن تولوا فما أرضى لها بهم(89)

ويبرر المتنبي اختيار نفسه واصطفائها لأداء مثل هذه المهمات الخطيرة، بما كان يخبر به في شعره من عموميات انتسابه للشرف والسيادة، والعلية من القوم، من غير تسمية صريحة لأسرة أو قبيلة يمكن أن تكشفا عن شخصيته، أو تنيرا حقيقة أمره. كما قد يسوغ تصديه لكل ذلك بما أوتي من فطنة وموهبة وتفوق، أو بما يصفه من شجاعته وهمته واقتداره، أو بما يحدث به عن نفسه العالية التي لا يمكن لها أن تقبل بغير المجد والسؤدد. في الوقت الذي يراد لها أن تذل وتخضع لمن لا يستحق الحكم والقيادة من ذوي الأصول الدخيلة، والنظر القاصر. ومثل على ذلك من القصيدة التي رثى بها جدته، حيث وجد فيها مناسبة للأعراب عن الكثير من دفائن نفسيه، وخلاصة أفكاره وطبيعتها:

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حكما
ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة ولا واجداً إلا لمكرمة طعما
يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي ما ابتغي جل أن يسما
كأن بنيهم عالمون بأنني جلوب إليهم من معادنه اليتما
وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعب من أن أجمع الجد
ولكنني مستنصر بذ بابه والفهما ومرتكب في كل حال به
وجاعله يوم اللقاء تحيتي الغشما وإلا فلست السيد البطل
إذا فل عزمي عن مدى خوف بعده القرما فأبعد شئ ممكن لم يجد عزما
وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي ويا نفس زيدي في كرائهها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزنـــي ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما [90]

اثر عقدة النسب في توجيه ذاتياته، ومناقشة بعض آراء الباحثين في ذلك:

فالغريب في أمره وليس غريباً عليه، أن ينشد ذلك المجد الكبير الذي ضاق به شعره، ويتمثل تلك العظمة التي نطقت بها عظامه، وهو في حال من البؤس والشقاء لا يحسد عليهما، وحيداً ضعيفاً لا يكاد يأمن على نفسه في حله وترحاله. فضلاً عن خشيته حتى من التصريح بنسبه الذي حرص على أن يتكتم عليه أشد التكتم.[91] الأمر الذي أدى إلى أن يتعرض لنبز أعدائه وحساده وغمزهم أكثر من مرة.[92] وعلى ذلك أسس بعض المعاصرين ممن كتبوا عنه، مسرحاً خياله بما شاء، ومتهماً الشاعر بأنه لم يكن يعرف أباه ، بدعوى أنه كان شاذاً في مولده. [93] من غير دليل قاطع، ولا حجة نافذة، على الرغم من فداحة اتهامه وخطورته، لأن في ذلك إساءة للشاعر أيما إساءة، إلا أنه من الانصاف القول: أن نسبه لو كان مدخولاً، أو فيه أية شائبة لما أغفلت مصادره ذكره، ولكان في ذلك متسع لكلام حساده ومناوئيه على كثرتهم. لا سيما أن بعضهم من ذوي النفوذ وأصحاب السياسة والأدب، كالمهلبي، والحاتمي، والصاحب، وغيرهم. [94] ولكان لشعراء بغداد الذين ألبوا على هجائه مجال لطعنه في الصميم، لو كان في نسبه مجال للطعن، ألا أن أي واحد منهم لم يذكر من ذلك شيئاً .[95] فضلاً عن أنه لو كان يعرف في نفسه حقاً، ويعرف أن الناس يعرفون أيضا، بأنه مثلوب النسب وضيعه، لأصبح ضعيفاً متردداً، ولما استطاع أن يفخر به وبنفسه ذلك الفخر النوعي الأصيل الذي ما زال صداه يتردد في آذان الزمن. ولما استطاع أن يتحدى بشموخ كل هذا التحدي الجبار الذي أخرس أهل زمانه بمختلف طبقاتهم ومشاربهم. ولما كان بإمكانه أن يتعاظم عليهم ذلك التعاظم الخارق للعادات والأعراف، لا يستثني في ذلك منهم الكبير والصغير، والملك وغير الملك. بحيث خلق من الجميع أقزاماً في جنب عظمته الجليلة تلك[96]. ولم يرو لنا التأريخ بأن أحداً منهم منعه مما يتبجح به من

ذلك – لو كان متبجحاً – أو صدمه بما يرضى أو لا يرضى مما أدعي عليه من تهم، إن كانوا فعلاً يعرفون شيئاً منها[97] . ولكن الرجل لأمر ما كان لا يصرح بنسبه، إلا أنه كان يصرخ بصوت عال بأنه سليل الأمجاد، والسادة من القوم. في الوقت الذي يتحرق فيه شوقاً إلى الصيرورة، لكي يتمكن من أن يسترد ذاته المقهورة، ويكشف عن هويته المسلوبة لهؤلاء الذين كانوا يجهلونه:

جهلوني وأن عمرت قليلاً نسبتني لهم رؤوس الرماح [98]

ومن هنا نذهب إلى أنه كان يعيش بشكل من الأشكال في شخصية متسترة، وهذا كان يشق عليه كثيراً ويؤلمه ويعذبه، بل يجهده نفسياً حين لا يتمكن من إظهار نفسه لأمور غامضة لا نعلمها. وبسبب من ذلك كله أصبحت مسألة نسبه تمثل صفحة مهمة من صفحات شعره الذاتي، وقضية من قضاياه الكبرى، بل يخيل إلى دارسه بأنها المحور الرئيس لحركة ذاته، ومنها تفرعت كل شؤونه الذاتية الأخرى.

ولهذه الأسباب مجتمعه كان حين يفخر بنسبه يحتاط بعض الاحتياط، ويتجنب التصريح، ويجعل من ذاته العالية مرآة عاكسة لذوات من ينتمي إليهم من قوم، من غير أن يبخس حقهم من الأصالة وعلو الشأن، بما لا يقدر أحد من غيرهم ادعاؤه، أو دفعه عنهم، ولا يلجئ نفسه بأن يسمي أحداً منهم- أي قومه – أو يكشف له عن هوية، وهكذا كان يتخذ من قيمة الماثل- نفسه – دليلاً على قيمة الغائب- قومه – والعكس صحيح عنده، وهو بهذا إنما يريد أن يؤكد على وثاقة الصلة بين ماضي الأجداد وحاضر الأبناء، إذ لا قيمة لمجد منقطع، ولا معنى لتراث مضيع، ولا بد – في عرفه – من أن يكون الابن على سر أبيه، بل وأن يضيف الابن شيئاً ذا بال، لما شاده أباه من مجد وأثله. وأي فاخر يمكن أن يلحقه في قوله:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضـــا د وعوذ الجاني وغوث الطريد
إن أكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد [99]

فهو لم ينف الشرف عن قومه، والفخر بجدوده، كما يفهم الآخرون من ظاهر قوله [100] . بل يستحيل أن يكون أراد النفي لانتفاء دواعي الفخر أصلاً مع هذه الحالة. وحينئذ لا يبقى شك في حمل المعنى على الإثبات، لأن المقام يستوجبه ويستدعيه، وهذا ما أراده بالفعل. أي أنه على الرغم مما كان متاحاً له لأن يشرف بشرف قومه، ويفخر بفخر جدوده، إلا أنه آثر أن لا يتعكز عليهما في ذلك، من غير أن يكون له منه شيء في نفسه، وبغير ذلك لا يمكن لأصالة الأجداد أن تتجدد، ولا لتأريخ القوم من أن يثرى ويخلد. فالمتنبي لم يفعل شيئاً سوى أنه خرق العادة في عكسه نظام المعنى- حين جعل الماضي يفخر بالحاضر- جرياً على عادته وأسلوبه في ترتيب معانيه ومعالجتها [101] ، ليزيد من أثرها، وليحقق عنصر الإدهاش والمفاجأة فيها. وبهذا الأسلوب تصبح نسبة الشرف والفخر أكثر تأصيلاً، وأشد التصاقا بقومه وأجداده. وما استدراكه في البيت الثاني إلا تأكيداً لما أسسه من

معنى سابق، ونفياً لما يمكن أن يتصوره الآخرون من أنه جرد قومه وجدوده من الشرف والفخر بأسلوبه الغريب ذاك. وقد بلغ الغاية من الفخر فيما نسبه من صفات إليهم في هذا البيت – الثاني – حتى ليتبادر إلى الذهن بأنهم من أسياد العرب من أهل مكة ، بل من سدنة الحرم.
وحق له بعد ذلك أن يرتفع بنفسه – التي هي مجموع ماضيه وحاضره – إلى أعلى المراتب، في بيته الثالث. وفي الصبا يدفع عن نفسه إثر كلام بلغه عن قوم:

أنا عين المسود الججاج هيجتني كلابكم بالنباح
أيكون الهجان غير هجان أم يكون الصراح غير صراح
جهلوني وإن عمرت قليلاً نسبتني إليهم رؤوس الرماح [102]

وفي مدحه لأحد التنوخيين يقول عن نفسه :

وكيف لا يحسد أمرؤ علـــم له على كل هامة قــدم [103]

فكيف يتجرأ من كان نسبه مدخولاً على أن يرمي هذا الشرر وأمثاله في وجه ممدوحه؟ وهل هذا إدعاء رجل وضيع؟ وفي رثاء جدته له قول:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لي أما [104]

وهذا البيت أيضا مما أسئ فهمه، واستغل للتشهير به من البعض الذي يذهب إلى أنه سلب صفة الكرم من جدته بهذا الأسلوب من التعبير. ولا أظن متأدباً منصفاً يمكن أن يتبادر إلى ذهنه مثل هذا الفهم الخاطئ، كما لا يمكن أن يكون المتنبي قصد ذلك. لا سيما أنه في موقف رثاء وإشادة بهذه الجدة العظيمة التي قتلها شوقها إليه بعد غيبة طويلة [105]. وكل ما في الأمر أن الشاعر أراد أن يذهب بالفخر كله، ويقرر أصالته وعراقته من جهة أمه متمثلة في جدته، ومن جهة أبيه متمثلاً في نفسه على حد سواء. فجعل والد جدته هو الأكرم من بين الناس، ولكن هذه الجدة تزداد كرماً إلى كرمها حين تشرك حفيدها في نسبه، وبذلك تكون قد جمعت بين الكرمين والشرفين من جهتي أبيها وحفيدها. وهذا ما أراد المتنبي أن يثبته لها ولنفسه، حتى يحوز هو الآخر الشرف من جهتيه أيضا أمه وأبيه. وهو يصدر فيه عن ثقة عالية بالنفس، واطمئنان إلى صحة ما يشيد به، من غير تلجلج أو تردد.
وقول آخر من القصيدة ذاتها:

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما[106]

قد لا يكون من العلم في شئ أن يتخذ من شعر الشاعر دليلاً قاطعاً على إثبات حقيقة أو نفيها، لأن من عادة الشعراء التزيد والادعاء ((وأنهم يقولون ما لا يفعلون)) [107]، إلا من أنعم الله عليه بالأيمان والعمل الصالح. والشعر بطبيعته يحتمل صدقاً وكذباً، لأنه إنشاء يعتمد خيالاً يعمل على تضليل العقل وإيهامه فيما يصوره[108] ، لكن على الرغم من كل ذلك تبقى في الشعر مساحة واسعة تتجذر فيها الحقيقة، ولا نريد هنا أن نبريء المتنبي عن مبالغاته فيما يطرحه من حقائق

نفسه، فشأنه في ذلك شأن أقرانه من الشعراء الآخرين. ولكن حين نتأمله جيداً، ونواكبه في ذاتياته نجده يختلف عنهم في عمق علاقته بذاته، وإخلاصه لها، وصدقه معها. فكانت شغله الشاغل، وموضوعه الحقيقي الكبير في شعره. وجهد في السعي لإظهارها بما هي عليه من صورتها الواقعية، لتحتل مكانها اللائق بها من بين الصور الكثيرة الباهتة في عصره. وهذا ما كان يكافح من أجله، وينظم الشعر بسببه. لذلك فأني أطمئن كثيراً للصورة التي كان يقدم بها ذاته في شعره. ويرسخ ذلك ما أثر عنه من أنه كان جاداً وعلى خلق، لا يحب الكذب [109]. وعليه فلا أشك فيما وصف به قومه من وصف أرتقى فيه إلى أن ينزلهم منزلة من الطهر والسمو تزري بكل منزلة أخرى لأحد من غيرهم. لا سيما إن صح ما كان قد ادعاه من علويته مرة[110]، ومن أنه رضع بلبان امرأة علوية مرة أخرى [111]، وينسجم كل الانسجام ما كان يصف به قومه مع ما يصف به نفسه، ومنه قوله:

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني ... فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ... إن النفيس غريب حيثما كانا
محسد الفضل مكذوب على أثري ... ألقي الكمي ويلقاني إذا حانا
لا أشرئب إلى ما لم يفت طمعاً ... ولا أبيت على ما فات حسرانا
ولا أسر بما غيري الحميد به ... ولو حملت إلي الدهر ملآنا [112]

وأختم القول في هذا المعنى بما رد به من رد قاس عنيف على من حاول أن يكيده في نسبه عند أبي العشائر الحمداني، في قصيدته اللامية فيه:

أنا أبن من بعضه يفوق أبا الـــ ... باحث والنجل بعض من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم ... من نفروه وانفذوا حيله
فخراً لعضب أروح مشتمله ... وسمهري أروح معتقله
وليفخر الفخر إذ غدوت به ... مرتدياً خيره ومنتعله
أنا الذي بين الإله به الـــ ... أقدار والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح الشراف بها ... وغضة لا تسيغها السفلة
إن الكذاب الذي أكاد بـــــه ... أهون عندي من الذي نقلـــه

فلا مبال ولا مداج ولا ... وان ولا عاجز ولا تكله
ودارع سفته فخر لقى ... في الملتقى والعجاج والعجله
وسامع رعته بقافية ... يحار فيها المنقح القوله
وربما أشهد الطعام معـــــي ويظهر ... من لا يساوي الخبز الذي أكلـه
الجهل بي وأعرفه ... والدر در برغم من جهله [113]

فهنا نجد أنفسنا أمام رجل- وأي رجل – هيجت عواطفه، وزلزلت أركانه، لما يسمع من فضول كيده زوراً وبهتاناً، في أعز ما يملك من شرف الانتماء إلى أهل نجباء. ولو كان ما كيد به حقاً، ويعرف هو أنه الحق، لما استطاع أن يتجرأ على مواجهة الآخرين بهذه القوة والعنفوان أمام الملأ. ولأبت عليه نفسه أن تنتفض انتفاضتها العملاقة في أبياته. بل لكان رده باهتاً خافتاً، أو لما استطاع أن يرد عليهم البتة ، لكنه على الرغم من كل ذلك لم يشأ أن يحسر اللثام عن وجه آبائه، إيغالاً منه في رفع قدرهم، حين لا يذكر لهم قدراً بعينه، وحرصاً على كتم سر ضم عليه جوانحه. إلا أنه حض هؤلاء والآخرين كل الآخرين من بعدهم، إلى أن يتأملوا، ويعيدوا النظر بعد النظر في شخصيته التي تفوقت عليهم وعلى غيرهم في كل شئ، لكي يدركوا بعد ذلك أي الآباء آباؤه؟ ((والنجل بعض من نجله)) [114] . فالمتنبي في كل مواقفه، لا يصبر على جاهل يتعرض لأرومته من غير وجه للحق والعلم، وقد يغض النظر عما دون ذلك.

فالغريب إذن أن حاله البائسة تلك لم تضعف من إرادته، أو تمنعه من التفكير بجدية في كل شئ جليل من شأنه أن يحقق ذاته. بل أن حاله تلك كانت من الدوافع القوية للتعبير عن هذه الذات الكبيرة التي يأبى لها صاحبها أن تحجم، وتعيش منسية في زوايا الحياة، ودهاليزها المظلمة. إنما يعتقد بأن من حقها عليه أن تعيش تحت الأضواء الساطعة، وتأخذ مكانها في مقدمة الركب. فضلاً عما يعتقده من أهليتها لذلك.

وعليه فقد دفعته إلى الكفاح ظروف كانت تحاصر ذاته، ونفس كانت تضيق بكل ما من شأنه أن يحد من انطلاقها، أو يصدها عن إرادتها. فاتخذ من موهبته الشعرية وسيلة أولى لحركته ونشر أفكاره وليتصل بالناس وذوي الجاه لكي يجمع المال والأنصار، ومن ثم ليتخذ من السيف وسيلة متقدمة في كفاحه. وانطلق في سبيله تلك يدعو الناس إليه ويستميلهم بقوة أدبه، حتى كان من أمره ما كان. [115]

لذلك نذهب إلى أنه كان داعية لنفسه، ولم يكن داعية لفئة أخرى، كالقرامطة مثلاً، كما يذهب البعض[116]. فهو في شعره كله، ولا سيما الذاتي منه، لم يكن ليقدم على نفسه أحداً، بل صرح أكثر من مرة في شعره بأن له في الحكم حقاً، وهو يطلبه، ولو كان يدعو للقرامطة لأشتهر عنه ذلك، ولما أغفلت مصادره ذكره - على الرغم مما كان يحاط به كذا تنظيم من سرية- ولما أضطر أن يقاتلهم في آخريات حياته.[117] لا سيما أنه لم يكن من طبعه التلون فيما يعتقده، أو المجاملة على حساب ما يؤمن به من قيم، بقدر ما يتسم به طبعه من ثبات نوعي في أفكاره، ومنطلقات نفسه فغيره الذي تغيره الأحداث، أو تنال منه المحن.

اثر الطفولة في بروز حالته الذاتية:

ونرجح أن الصورة المميزة، والتنلوينات الصارخة لحالته النفسية كانت قد نتجت عن هزة وجدانية أو فكرية عنيفة ألمت به في مقتبل حياته. إذ يجد الدارس بأن آثار نفسيته بخطوطها العريضة كانت واضحة وفاعلة في شعره منذ صباه المبكر، وظلت ملازمة لشخصيته بشكل أو بأخر في أطوره كلها[118] . أما ما تعرض

له من أحداث بارزة كحادثة سجنه في أول شبابه [119] ، ومن ثم موت جدته التي يقال أنه كان يحبها حباً شديداً[120] ، أو ماكان ينوشه من حيف في علاقاته مع ممد وحيه، تلك العلاقات التي تأرجحت بين المد والجزر في أغلب أوقاتها وصورها، أو ما كان يلقاه من حساده ومناوئيه من كيد وضغينة [121] . لكنه على الرغم من هذه الأحداث التي تفاوتت في شدة تأثيرها، وقوة ضغطها على نفسه، ألا أنها لم تترك أثراً خطيراً من شأنه أن يحدث انحرافا أو نقلة نوعية في سلوكه ومزاجه. بل أن ما كان يتمخض عن تلك الأحداث وغيرها، من ردود فعل آنية يمكن أن يعد امتدادا طبيعياً لنفسيته القلقة المتوثبة بكل ما كان يضللها من سمات وعلامات بارزة، وكأنه يعيش حدثاً كبيراً متصلاً. لذلك نحسب أن مظاهر نفسيته ومكوناتها الأساسية نشأت في وقت مبكر جداً، كأن يكون في مرحلة طفولته المتأخرة أيام كان يتلقى دروس العلوية في أحد كتاب الكوفة [122] . فاليافع في هذا الوقت من حياته تبدأ أجهزته الإدراكية والنفسية بالتفتح والنمو المطرد، ويصبح قادراً على أن يهضم ظروفه بدقة، ويتمثلها في أعماقه بإحساس مرهف ، وفي ضوء هذه الخبرة الشعورية الجديدة، وبأثر منها يتوجه سلوكه وتصدر أفعاله. وقد يبقى ذلك ملازماً له إذا بقي خاضعاً للظروف نفسها[123] . والذي يدفع إلى هذا التفسير، هو أننا في صباه نجد أنفسنا أمام شخصية قد نضجت قواها النفسية إلى حد ما، وتميزت في أدائها السلوكي والفكري بشكل يثير الانتباه والاستغراب. مما يدل على أنها مرت قبل مرحلة الصبا أو في أثنائها بتجربة حساسة ساعدت في إغنائها وبلورتها. وهذا بدوره يدفعنا إلى أن نعطي أهمية بالغة لوسطه العائلي، وبيئته الملاصقة له، فيما كان لهما من إسهام فعال وأثر مباشر في بروز حالته النفسية بالمظهرية التي كانت عليها، ونموها بالاتجاه الذي وجهت إليه. فضلاً عن أن كل هذه الاستنتاجات تدفع للظن بأن لتلك المرحلة الغامضة من عمره- ونعني بها طفولته- عقدها الشائكة التي كانت تضغط على نفسه وتوقظ نشاطها، من قبيل عقدة النسب، أو التعاظم، أو السلطة ، أو الشعور بالاضطهاد، إلى غير ذلك من عقده الأخرى، إذا جاز لنا أن نسمي مشكلات نفسه ومظاهرها عقداً .

وقد احتلت تلك العقد أو المشكلات أو الهموم، أياً كانت التسمية، مكانها من ذاته. وكانت ظروفه المجهدة القاسية، وواقعه المتنكر له، تغذيانها وتزيدانها أواراً يوماً بعد يوم كلما تقدم في عمره. حتى إذا بلغ السن التي استطاع فيها أن يواجه الحياة، أصبح أكثر إحساساً بما كان يشغله منها، ويثيره بسببها. لذلك وجدناه أبداً في شعره، ضيق الصدر متبرماً، محزوناً مألوماً، رافضاً متمرداً، ولجأ إلى ذاتياته ينفث آلامه نفثاً في محاولة منه للتخلص من فتك مشاعره، وفك الحصار عن نفسه، واتخذ منها وسيلة علها تنجده في تسوية مشكلاته، وتحقيق رغباته . [124]

بعض السمات النفسية والشعورية في ذاتياته:

وهكذا وجد نفسه في خضم معترك كان يزيد محنته في كل يوم محناً جديدة، ويضيف إلى همومه هموماً أخرى، أشد فتكاً وألماً. فانعكس أثر ذلك كله على تصرفاته وأفعاله، وطبع في حركاته وسكناته. حتى أفرز عنده مزاجاً حاداً رهيفاً

رافقه في أطوار حياته كلها، لكنه كان أكثر بروزاً في شبابه، فاصبح بفعله شديد الحساسية، سريع الإثارة والهياج، قوي الانفعال، يثور ويغضب لأمور تستحق ثورته وغضبه، أو لا تستحقهما على حد سواء. لا يتسامح مع من يهيجه أو يغيضه، ولا يتغاضى عن زلة يرتكبها أحد بحقه، وتمتلئ نفسه حنقاً على من يحاول أن يؤذيه أو يظلمه، ويظل يتحين فرصته في التشفي والانتقام. إذ لا يهدأ له بال قبل أن يوقع بخصمه، حتى لو كان إيقاعه به تعريضاً وهجاءً، وذلك أضعف ما يمكن أن يفعله[125] . ولكنه مع ذلك كله قد يملك نفسه، ويضبط أعصابه قبالة من يحاول أن يتعرض لإساءته، أو يسعى للنيل منه، ويترفع عن الرد عليه، استهجاناً واحتقارا له، وزراية به، لا سيما إذا كان خصمه صغيراً لا يملأ عينه، ولا يملك وزناً يعتد به. فقد كان من طبعه أن لا يعبأ ألا بمن يراه كفؤاً له ونظيراً، ولو أنه كان لا يساوي بنفسه أحداً. فمن ذلك ما ذم به الأعور بن كروس الذي وشى به عند بدر بن عمار، وكان سبباً في مفارقة أبي الطيب له:

فيا بن كروس يا نصف أعمى ... وإن تفخر فيا نصف البصير
تعادينا لأنا غير لكن ... وتبغضنا لأنا غير عور
فلو كنت أمرءاً يهجى هجونا ... ولكن ضاق فتر عن مسير [126]

ولكنه قد يكظم على مضض، ويصبر صبر مألوم مكلوم، إذا أتت إساءته من ذوي النفوذ والسلطان. وحينها لا يمكث في جنبهم إلا بمقدار الوقت الذي يرتب فيه أمر فراقهم على عجل، ويفر بنفسه وطبعه الذي جبل على الأنفة من قبول الإهانة، أو الرضى بالخضوع. ذلك الطبع الذي يرفض علاقة لا تحفظ له قدره وكرامته، مهما كان شكلها ونوعها، وإن كانت تدر عليه حطام الدنيا بأجمعه. فإذا أصبح في مأمن من شرورهم راح يصب جام غضبه عليهم صبا، ويتوعدهم بالويل والثبور، أو يندب حظه الذي لم يمكنه من سلاح يواجههم به غير الهزيمة والفرار. وذلك وأمثاله من أشد المواقف نكأ لالامه، وفتكاً بعواطفه.ومثل على ذلك ما باح به لنفسه من مقدمة مدحة له في الخصيبي:

لله حال أرجيها وتخلفني ... وأقتضي كونها دهري ويمطلني
مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم ... قصائداً من إناث الخيل والحصن
تحت العجاج قوافيها مضمـــرة ... إذا تنوشدن لم يدخلن في أذن[127]

ولنا أن ننظر في عواطفه المتضاربة المتلاطمة بعد مغادرته بدراً مضيماً مغضباً، ونزوله بعلي المري في جبل جرس، حيث مدحه بقصيدة تحدث في الجزء الأول منها عما يختزن في صدره من لواعج وهموم:

لا آفتخار إلا لمن لا يضام ... مدرك أو محارب لا ينام
ليس عزماً ما مرض المرء فيه ... ليس هماً ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيه ... غذاء تضوى به الأجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش ... رب عيش أخف منه الحمام
كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجئ إليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

ضاق ذرعاً بأن أضيق ذر عــاً زماني واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي واقفاً تحت أخمصي الأنام
أقراراً ألذ فوق شرار ومراماً أبغي وظلمي يرام
دون أن يشرق الحجاز ونجــد والعراقان بالقنا والشـــام (128)

إن هذا الشكل المفرط من رهافة حسه، ودقة شعوره، وانفعاله الشديد لكل ما من شأنه أن يمس كرامته، أو يجرح مشاعره، قد يكون من بعض أسبابه تقديره العالي لنفسه التي يحس أنها تسحق سحقاً، بفعل ما كان يشعر به – وهكذا هو في شعره- من اضطهاد وتهديد وجور. فضلاً عن كثرة ما كان يتعرض له من أذى، وما يلقاه من خصومة، لا لشئ إلا حسداً ومنافسة غير متكافئة، وإلا اعتزازا بشخصية لا يريد لها أن تذل أو تجرح أو تثلم. فهذا وغيره كان يفقده صوابه وإتزانه، حتى يفقد معهما السيطرة على نفسه في المواقف التي تجفله وتستفزه. ومثل على ذلك ما دفع به عن نفسه، لما علم من وشاية أبن كروس عليه عند بدر، من قصيدة مدح بها بدراً:

وآنه المشير عليك في بضلة فالحر ممتحن بأولاد الزنى
وإذا الفتى طرح الكلام معرضاً في مجلس أخذ الكلام اللذ عنى
ومكايد السفهاء واقعة بهم وعداوة الشعراء بئس المقتنى
لعنت مقارنة اللئيم فإنها ضيف يجر من الندامة ضيفنا
غضب الحسود إذا لقيتك راضياً رزء أخف علي من أن يوزنا(129)

فالحدة في مزاجه إذن لم تنبع عن شخصية ضعيفة مهزوزة، لا تصمد للإثارة، ولم تصدر عن سلوك طائش أهوج عدواني النزعة. بل كانت تصدر عن شخصية قوية تملك قدراً من الاتزان والتحكم في عواطفها. فضلاً عما تملكه من قدرة متعقلة ترفدها شجاعة على حسم المواقف المريبة، والتصدي بشراسة لذوي النوايا السيئة. وفي الوقت نفسه تصدر عن سلوك لا يلتزم عادته في ظروف طارئة تمس الشخصية.

ابرز معالم شخصيته في ذاتياته:

لقد كانت مرحلة نضجه وشبابه حاسمة في ظهور أبرز معالم شخصيته، وما كان يرافقها من حركة نفسية، وظلت هذه المعالم تلون شعوره وسلوكه بألوانها في قادم عمره كله. ومن بين تلك المعالم أنه كان يميل إلى الطبع في سلوكه وأفعاله ونظراته، وينفر من التكلف والادعاء والزيف. فالرجل كان صريحاً ومباشراً في علاقاته بالآخرين وتعامله معهم. لا يعرف المجاملة والمصانعة، ولا يلجأ إلى المكر والحيلة في تمرير مصالحه ومنافعه، ولا يساوم على ما يعتقده في نفسه، وعلى ما يملي عليه حسه ووجدانه، ولا يخفي ما يعلمه من الحق والحقيقة، مهما كان وقع ذلك على نفسه، أو على غيره، محب أبداً لصورة الناس والأشياء على حقيقتيهما، من غير زيادة أو نقصان، مبغض للمراوغة والمداهنة، أو الكذب والرياء (130).

والطبع أياً كان لونه يلازم الإنسان ملازمة الظل لصاحبه، وأصل المتنبي ذلك في قوله:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل [131]

ونشأته بين القبائل البادية، وكثرة مخالطته لهم في أسفاره وتنقلاته، تركت أثراً كبيراً في ميوله وهوى نفسه، وفيما جذب إليه من طباعهم الشفافة. وهكذا اكتسب من البادية نقاءها ووضوحها وأخلاقها. فكانت نظراته إلى الأشياء تنطلق من رؤية صافية صادقة، حتى في مجال إحساسه بجمال المرأة، وأمر تفضيله للبدويات على الحضريات مشهور عند دارسيه[132] ، ومعلوم في شعره. فضلاً عن حبه السيوف عارية من التذهيب، أو أية زيادة جمالية طارئة عليها، وكرهه الخضاب على الرغم من تبكير الشيب في لممه، بل واستغناؤه حتى عن أن يتطيب. ففتاته بدوية:

عدوية بدوية من دونها سلب النفوس ونار حرب توقد [133]

وسيفه خلاصة الحديد الخضيب بالنجيع والغضب، وليس الذهب:

أحسن ما يخضب الحديد به وخاضبيه النجيع والغضب
فلا تشيننه بالنصار فما يجتمع الماء فيه والذهب [134]

وخضاب الشعر كذب لا يحبه، لمخالفته حب الصدق في قوله وعادته:

ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعر في الرأس مكذوب[135]

وله عن الطيب غناء:

الطيب مما غنيت عنه كفى بقرب الأمير طيبا [136]

علاقة ابداعه بذاتياته:

ولكن الأهم من هذا وذاك في هذا الأمر، هو تلك الوشائج القوية بين ذاته- التي هي منبع طباعه وميوله- وبين إبداعه. فمن طبعه إلا يستغويه شعر لا يجد فيه ذاته. فمتى ما تحركت ذاته تحرك إبداعه، وأن خمدت خمد هو الآخر. وأشد ما كان يزعجه ويؤسفه قصيد يمدح به من لا يراه أهلاً للمدح، إن لم ير فيه عدواً مناوئاً. ولكن ما حيلته إن اضطرته ظروفه- على الأقل في هذا الطور- لأن يمدح من هب ودب، ولا يكاد يحصل على ما يوفر عليه قوته من وراء مدحه ذاك [137].فقد عانى الرجل غربة السفر، وبلاء السجن، وتربص الأعداء والحساد وقطاع الطرق، فكان أحوج ما يكون إلى إقامة أود حياته، ولا بضاعة عنده غير شعر يبيعه بأبخس الأثمان. فمن مدحة له في أحد التنوخيين يقول:

إلى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد [138]

وفي القصيدة ذاتها يقول أيضا:

أشرت أبا الحسين بمدح قوم نزلت بهم فسرت بغير زاد
وظنوني مدحتهم قديماً وأنت بما مدحتهم مرادي [139]

ومن مدحه أخرى في القاضي الخصيبي يقول:

لا أقتري بلداً إلا على غرر ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم ملكاً إلا أحق بضرب الرأس من وثن
إني لأعذرهم مما أعنفهم حتى أعنف نفسي فيهم وأني [140]

وفي القصيدة نفسها يقول أيضا:

مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم قصائداً من إناث الخيل والحصن
تحت العجاج قوافيها مضمرة إذا تنوشدن لم يدخلن في أذن [141]

ولو أمعنا النظر في شعره المدحي – على كثرته في هذا التأريخ من حياته- لوجدنا بأن أغلبه جاء بارداً باهتاً، لا روح فيه ولا رواء، لأن ذاته كانت تجاذبه العنان في تحريره، فلم يكن يصدر فيه عن طبعه [142]. اللهم إلا بعض قصائد منه، والتماعات هنا وهناك. لا سيما حين كان يأنس بممدوحه، ويرى فيه شخصية قادرة على أن تحرك ذاته، وتستحق مدحه.[143] أما شعره الذاتي الخالص، فلا مراء في أصالته، وإبداعه في أكثره، أن لم يكن في جميعه. فقد كان الرجل صادقاً مع نفسه، مخلصاً لمشاعره، لا تلاعبه عاطفة، ولا يكذبه هاجس، مما تضج به دواخله من عواطفه وهواجسه. وإلا فلا ينتظر منه إلا شعر واهن خافت حين لا يجد نفسه فيه، على الرغم مما يملك من ملكة فنية لكنها هي الأخرى تخبو عندما تخبو ذاته وتغيب عن سماء الشعر.

بل نجده يشق على نفسه حين يتمثل نفسه فيما يصور به الآخرين من صوره، وفيما ينسبه لهم من معاني مدحه، لا سيما أولئك الذين يرتقون إلى مستوى إعجابه وتقديره، وكأنه يريد أن يشركهم في صفاتهم، أو أن يسلبهم إياها، لما كان يحسه في نفسه من تفوق عليهم، أو على الأقل فيما يشعر به من مماثلة لبعضهم في وجه من الوجوه، ومثل على ذلك ما صور به نفسه من صورة في صباه:

إن أكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد [144]

نقل ما يشبه هذه الصورة إلى ممدوحه علي بن سيار التميمي:

عجيب في الزمان وما عجيب أتى من آل سيار عجيبا [145]

ثم عاد ليوشح بها نفسه مرة أخرى، في مدحه لطاهر بن الحسين العلوي:

إلي لعمري قصد كل عجيبة كأني عجيب في عيون العجائب [146]

فالمرتكز الدلالي واللفظي في هذه الصور واحد، وإن سلمنا بما كان فيها من تباين في جزئيات المعنى، ولا أقصد بذلك الإشارة إلى تكرار معانيه، بقدر ما أقصد مشاركة ممدوحه في مدحه كما أسلفت.
أما علاقته بممدوحه، فلم يرد لها أن تكون علاقة شاعر بأمير أو كبير يمدحه، فيتطلب منه حينئذ ما يتطلب من المداح من الخضوع والتذلل، بل أبى أن يخضع، وأنف من أن يتذلل ويتوسل، ولم يرض إلا بأن يساوي ممدوحه في مجده وموقعه، فراح يرفع نفسه إلى مقامه، ويشاركه في قدره. ومثل على ذلك ما قاله من قصيدة يمدح بها آبن سيار التميمي:

فلما رآني مقبلاً هز نفسه إلي حسام كل صفح له حد
فلم أر قبلي من مشى البحر نحوه ولا رجلاً قامت تعانقه الأسد[147]

ولأبي العشائر الحمداني يقول:

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ كلانا رب المعاني الدقاق [148]

ويقول له أيضا:

فسرت إليك في طلب المعالي وسار سواي في طلب المعاش[149]

وليس بمستكثر على المتنبي إذا اعتز بموهبته وفخر بشعره، فشأنه في ذلك شأن العباقرة من أقرانه الشعراء، بل ربما كان أكثر إيغالاً وإلحاحاً منهم في هذا الأمر. فالرجل كان على بصيرة من فنه، مدركاً قبل غيره، ما لهذا الفن من شأن وموقع من النفوس، وأول ناقد الشعر قائله، فما فتئ يشيد بشاعريته، ويعلي من مستوى شعره بين الحين والآخر. وما ذاك إلا تأكيد على سمو مكانته الأدبية والفكرية، ليعرف الناس حقه من التقدير والرعاية، في وقت كان يتعرض فيه إلى كثرة كاثرة من الحساد والمنافسين الذين لم يدخروا وسعاً في الكيد له، والإيقاع به، وسلب شاعريته، كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا. لأنه بتفوقه عليهم في ميداني

شخصيته وشاعريته، سلبهم حظوتهم لدى أصحابهم، وقطع أرزاقهم من غير أن يقصد لذلك.

لذلك أضطر إلى أن يدفع عن نفسه وشعره في مزاوجة بيانية قل نظيرها، فهزمهم بما كان يرسخه من قيم أدبية وأخلاقية وإنسانية في هذا الموضوع. وإن تمكنوا أحياناً من أن يثيروه عن مجثمه، ويفككوا عرى علاقاته مع بعض ممدوحيه ، فمن ذلك ما كتبه إلى الحسين بن أسحق التنوخي((وكان قوم قد هجوه ونحلوا الهجاء إلى أبي الطيب)) [150] :

أتنكر يا آبن أسحق إخائي وتحسب ماء غيري من إنائي

000

وهاجي نفسه من لم يميز كلامي من كلامهم الهراء
وأن من العجائب أن تراني وتعدل بي أقل من الهباء
وتنكر موتهم وأنا سهيل طلعت بموت أولاد الزناء [151]

وعند بدر بن عمار يحاول الآخرون النيل من شاعريته، فيرد عليهم بقوله:

أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريـــض يجد مراً به الماء الـزلالا [152]

ولا يدع مناسبة تمر من غير أن يذكر شعره بخير، مفنداً ذم من يذمه كقوله من مدحة له في القاضي أحمد بن عبد الله الأنطاكي:

لا تجسر الفصحاء تنشد هاهنا بيتاً ولكني الهزبر الباسل
ما نال أهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل
وإذا أتتك مذمتي من ناقـــص فهي الشهادة لي بأني كامـــل [153]

ولا يكاد يسلم مما أبتلي به من داء الحسد وكيد الشعراء، فقد ظل هذا الوباء يلاحقه في كل زمان ومكان، وليس من بلسم يشفيه منه غير كلمات هي أكثر فعلا من بلسم. ومن كلماته تلك قوله من مدحة له في الحسين بن علي الهمذاني:

يرومون شأوي في الكلام وإنما يحاكي الفتى فيما خلا المنطق القرد
فهم في جموع لا يراها آبن دأية وهم في ضجيج لا يحس به الخلد
ومني استفاد الناس كل غريبـــة فجازوا بترك الذم إن لم يكن حمد[154]

وله مواقف وأشعار أخرى في هذا الموضوع، نحيلها إلى ديوانه . [155]

الخاتمة:

وأذا كان لابد من كلمة أخيرة، فالكلمة هي: أن المتنبي لم يخلق ليكون شاعراً، وإنما خلق الشاعر ليكون متنبياً، ولم يشد رحاله إلى ملكوت الشعر، إلا ليبحث عن ذاته الفقيدة- في عصر تخلخلت أسسه واهتزت قيمه، ففقد ذاته هو الآخر- فإن تجاوز شعره مملكة ذاته- وغالباً ما يتجاوزها على مضض- فليس إلا لكي يقدمها للآخرين ويقدم الآخرين إليها، ليعرفهم عن كثب ويعرفونه، فيما يسعى إليه من مجده وتطلعه. وذاته بالصورة التي ظهرت عليها في شعره، ليست ذاتاً فردية مكورة إلى الداخل إنما هي ذات الإنسان الممتدة في كل العصور. الإنسان الذي سلب الجور حريته، فسعى لأن يكون حاكماً عادلاً، وهي ذات المجموع الذي مسخت هويته، فراح يلملم أشتات نفسه الممزقة لإثبات وجوده.

وبعد فذاتياته عالم مفتوح، ترامت أطرافه، واتسعت آفاقه، وتجربة إنسانية زخرت بالشيء الكثير، وهي بما اتسمت به من ثراء وغنى، تدعو إلى مزيد من التأمل وإعمال الفكر، وما رسم لها من ملامح فيما مر من البحث، لا يمثل إلا صوراً مجتزأة من مشهد كبير، لما يزل يغازل نظر الناظرين.

هوامش البحث

١. ويتجلى ذلك البعد الإنساني فيما كتب عنه من دراسات كثيرة، تناولت بشكل أو بآخر جوانب متعددة من شعره الذي تحدث فيه عن نفسه وشؤونه الذاتية المحضة، ينظر(رائد الدراسة عن المتنبي: كوركيس عواد وميخائيل عواد، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر 1979: 12- 398).
٢. ينظر على سبيل المثال، المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس، بحث(المتنبي شاعر العظمة والطموح: الدكتور منجي الكعبي) الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر 1979: 95- 138).
٣. ينظر مثلاً، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم ميتز، دار الكتاب العربي- بيروت، ط4، 1967، المجلد الأول: 19- 509.
٤. ينظر، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي: ناصيف اليازجي، دار القلم- بيروت، ط 2: 3- 260 .
٥. فيما يتعلق بالشخصية، ينظر على سبيل المثال، عالم الشخصية: مصطفى عبد السلام الهيتي، ط1، بغداد 1985: 11- 264.
٦. ينظر، المدخل في علم النفس: هاشم جاسم السامرائي، بغداد، 1988: 26- 27.
٧. ينظر، المدخل في علم النفس: 109- 122.
٨. ينظر، علم النفس: فاخر عاقل، دار العلم للملايين ، بيروت، ط 5، 1977: 25- 37.
٩. ينظر، عالم الشخصية: 37- 38.
١٠. ينظر، المدخل في علم النفس: 77- 106.
١١. ينظر، المدخل في علم النفس: 125- 145.
١٢. ينظر، المدخل في علم النفس: 133- 145.
١٣. ينظر، دراسات سيكولوجية: عبد الرحمن محمد عيسوي، دار المعارف، 1981: 364.
١٤. ينظر، أسس علم النفس: أحمد محمد عبد الخالق، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، 1989: 107- 147، 591- 607.
١٥. ينظر على سبيل المثال، دراسة محمد النويهي لنفسية أبي نواس(نفسية أبي نواس: د. محمد الونيهي، دار الفكر، ط2: 5- 172).
١٦. ينظر، نظريات الشخصية: دوان شلتز، ترجمة د. محمد دلي الكربولي، وآخر، مطبعة جامعة بغداد، 1983: 23- 466.
١٧. ينظر، نظريات الشخصية: 185.
١٨. ينظر، أسس علم النفس: 608- 616.
١٩. نظريات الشخصية: 185.
٢٠. ينظر، العرف الطيب: 3- 260.
٢١. العرف الطيب: 14.
٢٢. العرف الطيب: 28.

٢٣. العرف الطيب: 30.
٢٤. ينظر، العرف الطيب: 9، 33، 46، 79، 80، 95، 96، 140، 168، 175، 204.
٢٥. ينظر، العرف الطيب: 79-80، 87-88، 96-97،؟ 163-164، 170-172.
٢٦. العرف الطيب: 11-12.
٢٧. العرف الطيب: 194-195.
٢٨. ينظر، المورد، عدد خاص، أبو الطيب المتنبي، وزارة الأعلام- العراق، المجلد 6، العدد 3، 1977، بحث(الجبال والأمكنة والمياه في شعر المتنبي: محمد علي ألياس العدواني): 13-22.
٢٩. ينظر على سبيل المثال، تأريخ الخلفاء: للسيوطي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط1، بغداد 1983: 378- 400.
٣٠. ينظر، يتيمة الدهر: للثعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط 2، مطبعة السعادة، القاهرة، 1956: 1/ 128.
٣١. العرف الطيب: 47.
٣٢. العرف الطيب: 164.
٣٣. ينظر مثلاً، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: 19-74، وذكرى أبي الطيب بعد ألف عام: عبد الوهاب عزام، دار المعارف بمصر، ط3، 1968: 14-18.
٣٤. العرف الطيب: 96.
٣٥. العرف الطيب: 169.
٣٦. بلغ من سوء أحوال الدولة في زمنه، وتغلب الخارجين عليها، بأن يتولى مؤنس الخادم إمرة الأمراء، ويلعب بمقادير الخلافة. ينظر، تأريخ الخلفاء: 382-384.
٣٧. العرف الطيب: 204-205.
٣٨. ينظر، ذكرى أبي الطيب: 52-63.
٣٩. العرف الطيب: 87-88.
٤٠. العرف الطيب: 32-33.
٤١. العرف الطيب: 50.
٤٢. مع المتنبي: طه حسين، دار المعارف بمصر، ط10: 151.
٤٣. العرف الطيب: 219.
٤٤. العرف الطيب: 509.
٤٥. مع المتنبي: 99.
٤٦. مع المتنبي: 100.
٤٧. ينظر، مع المتنبي: 141.

٤٨. ففي هذه الدولة((آل الأمر إلى أن أمرت أم المقتدر مثل القهرمانة أن تجلس للمظالم وتنظر في رقاع الناس كل جمعة، فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها)). (تأريخ الخلفاء: 381).
٤٩. ينظر مثلاً، مقال(المتنبي وشعره، التناقض والحل: جبرا إبراهيم جبرا)، آفاق عربية، الجمهورية العراقية، السنة 3، العدد4، كانون الأول 1977: 28-30.
٥٠. العرف الطيب: 170.
٥١. العرف الطيب: 205.
٥٢. العرف الطيب: 168- 169.
٥٣. العرف الطيب: 200.
٥٤. ينظر على سبيل المثال، البحث النفسي في إبداع الشعر: ثامر حسن جاسم، الموسوعة الصغيرة، العدد 222، بغداد، 1986: 5-72، فهذا البحث يسلط الضوء على طبيعة الصراع النفسي الذي يعيشه الشاعر في داخله، حين يكتب ما يكتب من شعره.
٥٥. العرف الطيب: 140- 141.
٥٦. ينظر مثلاً، أبو الطيب المتنبي، مكتبة النهضة، بحث(جنون العظمة في المتنبي، مرض نفسي- فضيلة خلقية: للأستاذين، عبد الرحمن صدقي، وطاهر الطناحي): 61-71. وينظر، المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس، بحث(المتنبي شاعر العظمة والطموح: منجي الكعبي) : 95- 138.
٥٧. العرف الطيب: 9.
٥٨. العرف الطيب: 17.
٥٩. العرف الطيب: 88.
٦٠. العرف الطيب: 97.
٦١. ينظر مثلاً، الرفض ومعانيه في شعر المتنبي: يوسف الحناشي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984: 11- 231.
٦٢. العرف الطيب: 79.
٦٣. العرف الطيب: 164.
٦٤. العرف الطيب: 219.
٦٥. العرف الطيب: 169.
٦٦. ينظر، المثال والتحول، آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته: د. جلال الخياط، بغداد، 1976، بحث(غربة المتنبي): 97- 103.
٦٧. العرف الطيب: 18.
٦٨. العرف الطيب: 96.
٦٩. العرف الطيب: 178- 179.
٧٠. ينظر، ذكرى أبي الطيب: 213.
٧١. العرف الطيب: 17.
٧٢. العرف الطيب: 96.

٧٣. العرف الطيب: 195.
٧٤. قد نفهم شيئاً عن طبيعة الحركة التعبيرية في شعر المتنبي، إذا فهمنا طبيعة حركة العبقرية في النفس والمجتمع، ينظر في ذلك، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصه: د. مصطفى سويف، ط 3، دار المعارف بمصر، 1970: 117-156.
٧٥. ينظر على سبيل المثال، الرفض ومعانيه في شعر المتنبي: 141-153، وتحول المثال: صالح زامل، ط 1، 2003، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: 34-65.
٧٦. العرف الطيب: 31.
٧٧. العرف الطيب: 46.
٧٨. العرف الطيب: 169.
٧٩. العرف الطيب: 172.
٨٠. العرف الطيب: 34.
٨١. ينظر على سبيل المثال، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، عدد 10، نيسان 1967، بحث(أضواء جديدة على نبوة المتنبي: د. حسام محي الدين الآلوسي): 247، ومع المتنبي: 98.
٨٢. ينظر، البحث النفسي في إبداع الشعر: 31-72.
٨٣. العرف الطيب: 95-96.
٨٤. العرف الطيب: 80.
٨٥. العرف الطيب: 23-24.
٨٦. العرف الطيب: 30.
٨٧. ينظر مثلاً، عالم الشخصية: 25-60، والمدخل في علم النفس: 67-68.
٨٨. ينظر مع المتنبي : 34-100، وذكرى أبي الطيب: 66-72.
٨٩. العرف الطيب: 31-33.
٩٠. العرف الطيب: 178-179.
٩١. في التحليل الوافي لهذه المسألة، ينظر، المتنبي: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، 1987: 137-198.
٩٢. ونجد ذلك في شعره الذي يرد به على هؤلاء، ينظر، العرف الطيب: 50، 253-254.
٩٣. ينظر مع المتنبي: 12-25.
٩٤. ينظر، المثال والتحول، بحث(المتنبي وحاسدوه): 9-35، وأبو الطيب المتنبي، بحث(الدسائس الأدبية بين المتنبي والصاحب بن عباد: د. زكي مبارك): 33-36.
٩٥. ينظر، ذكرى أبي الطيب: 157-160.
٩٦. وشعره جله شاهد على عظمته تلك، ينظر، العرف الطيب: 3-624، وينظر أيضا المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس، بحث(المتنبي شاعر العظمة والطموح): 95-138.

٩٧. ينظر مثلاً، المتنبي: 129- 392، وتراجم الشاعر الملحقة به : 585- 697.
٩٨. العرف الطيب: 50.
٩٩. العرف الطيب: 17.
١٠٠. ينظر، مع المتنبي: 20.
١٠١. ينظر، المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس، بحث(حركة المعنى في شعر المتنبي بين السلب والإيجاب. د. عز الدين إسماعيل): 165- 189.
١٠٢. العرف الطيب: 50.
١٠٣. العرف الطيب: 88.
١٠٤. العرف الطيب: 178.
١٠٥. ينظر الخبر الذي قدم به لرثاء جدته في ديوانه، العرف الطيب: 175.
١٠٦. العرف الطيب: 179.
١٠٧. الشعراء: 226.
١٠٨. ينظر مثلاً، الصورة الشعرية: سي – دي لويس، ترجمةد. أحمد نصيف الجنابي، وآخرين، الجمهورية العراقية 1982: 17- 185.
١٠٩. ينظر، ذكرى أبي الطيب: 204، 213- 215.
١١٠. ينظر، المتنبي(ترجمة المتنبي لأبن العديم): 613.
١١١. ينظر، المتنبي(ترجمة المتنبي للربعي): 589.
١١٢. العرف الطيب: 186.
١١٣. العرف الطيب: 253- 254.
١١٤. شغلت قضية نسب المتنبي الباحثين كثيراً، ينظر مثلاً، المتنبي: 137- 182. والمتنبي يسترد أباه: عبد الغني الملاح، ط 1، بغداد 1974: 10- 203. والمورد، بحث(حول نسب المتنبي: عبد المنعم محمد جاسم): 151- 154 ، وآفاق عربية، بحث(بطاقة هوية جديدة لأبي الطيب المتنبي: عبد الوهاب أمين): 53- 55.
١١٥. ينظر، يتيمة الدهر: 1/ 128.
١١٦. ينظر، مع المتنبي: 42- 100، وينظر، رد محمود محمد شاكر على ما ذهب إليه طه حسين من قرمطية المتنبي، في ذيل كتابه، المتنبي: 487- 515.
١١٧. شارك المتنبي في قتال القرامطة حين هجموا على الكوفة، وهو فيها بعد رجوعه من مصر، ومدح دلير بن لشكروز القائد الذي جاء لقتالهم. ينظر، العرف الطيب: 559- 564.
١١٨. ينظر، العرف الطيب: 3- 624. وينظر أيضا، أبو الطيب المتنبي، بحث(حياة المتنبي حياة متعبة ممزوجة بالدم: شفيق جبري): 42- 44.
١١٩. ينظر، ذكرى أبي الطيب: 52- 63.
١٢٠. ينظر، ذكرى أبي الطيب: 35- 36.
١٢١. ينظر، المثال والتحول، بحث(المتنبي وحاسدوه): 9- 35.

١٢٢. ينظر، ترجمة المتنبي المنقولة من إيضاح المشكل، للأصفهاني، في خزانة الأدب: للبغدادي، ط1، المطبعة الأميرية ببغداد، مجلد1، جـ 1: 382.
١٢٣. ينظر، عالم الشخصية: 93-104.
١٢٤. ينظر، الرفض ومعانيه في شعر المتنبي: 21-48. وينظر أيضا، البحث النفسي في إبداع الشعر: 59-72.
١٢٥. ينظر، آفاق عربية، بحث(المتنبي والنفس: د. علي كمال): 20-30.
١٢٦. العرف الطيب: 170.
١٢٧. العرف الطيب: 172.
١٢٨. العرف الطيب: 163-164.
١٢٩. العرف الطيب: 155-156.
١٣٠. ينظر، ذكرى أبي الطيب: 204-215.
١٣١. العرف الطيب: 276.
١٣٢. ينظر، ذكرى أبي الطيب: 215-221.
١٣٣. العرف الطيب: 42.
١٣٤. العرف الطيب: 355-356.
١٣٥. العرف الطيب: 482.
١٣٦. العرف الطيب: 225.
١٣٧. ينظر، ذكرى أبي الطيب: 63-65.
١٣٨. العرف الطيب: 80.
١٣٩. العرف الطيب: 83.
١٤٠. العرف الطيب: 170-171.
١٤١. العرف الطيب: 172.
١٤٢. ينظر مثلاً، قصائده في مدح جعفر بن كيغلغ، ومحمد بن زريق الطرسوسي، وعبد الله بن يحيى البحتري، وأبو الفرج القاضي المالكي، وعمر بن سليمان الشرابي، وأبن أبي الأصبع الكاتب، غيرها. وصفحاتها على التوالي في العرف الطيب: 35-38، 51-54، 55-56، 101-105، 110-114، 114- 118.
١٤٣. ينظر مثلاً، قصائده في مدح التنوخيين، والمغيث العجلي، والآوراجي الكاتب، وبدر بن عمار، وعلي بن أحمد المري، وأبن سيار التميمي، وغيرها، وصفحاتها على التوالي في العرف الطيب: 70-92، 92-101، 122-128، 139-144، 145-150، 163-167، 199-204.
١٤٤. العرف الطيب: 17.
١٤٥. العرف الطيب: 202.
١٤٦. العرف الطيب: 232.
١٤٧. العرف الطيب: 206-207.
١٤٨. العرف الطيب: 245.
١٤٩. العرف الطيب: 251.

١٥٠. العرف الطيب: 73.
١٥١. العرف الطيب: 73-74.
١٥٢. العرف الطيب: 142.
١٥٣. العرف الطيب: 184.
١٥٤. العرف الطيب: 217- 218.
١٥٥. ينظر، العرف الطيب: 246،234،198،167.

مصادر البحث ومراجعه

1. القرآن الكريم .
2. أبو الطيب المتنبي، مكتبة النهضة، الابحاث:
   أ. جنون العظمة في المتنبي مرض نفسي – فضيلة خلقية: للأستاذين، عبد الرحمن صدقي، وطاهر الطناحي .
   ب. الدسائس الادبية بين المتنبي والصاحب بن عباد: د. زكي مبارك.
   ج. حياة المتنبي حياة متعبة ممزوجة بالدم: شفيق جبري.
3. أسس علم النفس: احمد محمد عبد الخالق، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1989.
4. الأسس النفسية للابداع الفني، في الشعر خاصة: د. مصطفى سويف، ط 3، دار المعارف بمصر، 1970.
5. تأريخ الخلفاء: للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 1، بغداد، .1983
6. تحول المثال: صالح زامل، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003.
7. الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم، ميتز، دار الكتاب العربي – بيروت، ط4، المجلد الاول، 1967.
8. خزانة الادب: البغدادي، ط 1، المطبعة الاميرية ببغداد، مجلد 1، ج1، وفيها ترجمة المتنبي المنقولة من ايضاح المشكل، للاصفهاني.
9. دراسات سيكلوجية: عبد الرحمن محمد عيسوي، دار المعارف، .1981
10. ذكرى أبي الطيب بعد الف عام: عبد الوهاب عزام، دار المعارف بمصر، ط3، 1968.
11. رائد الدراسة عن المتنبي: كوركيس عواد وميخائيل عواد، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، .1979
12. الرفض ومعانيه في شعر المتنبي: يوسف الحناشي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984.
13. الصورة الشعرية: سي – دي لويس، ترجمة د. احمد نصيف الجنابي واخرون، الجمهورية العراقية، 1982.
14. عالم الشخصية: مصطفى عبد السلام الهيتي، ط 1، بغداد، 1985.
15. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي: ناصيف اليازجي، دار العلم – بيروت، ط2.
16. علم النفس: فاخر عاقل، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1977.
17. المتنبي: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، 1987. ورجع ايضا الى ذيل هذا الكتاب، والى ترجمتي المتنبي لابن العديم، وللربعي، من تراجم الشاعر الملحقة بالكتاب.
18. المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، 1979، الأبحاث،

أ. المتنبي شاعر العظمة والطموح: د. منجي الكعبي.
ب. حركة المعنى في شعر المتنبي بين السلب والايجاب: د. عز الدين اسماعيل.
١٩. المتنبي يسترد أباه: عبد الغني الملاح، ط1، بغداد، 1974.
٢٠. المثال والتحول، آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته: د. جلال الخياط، بغداد، 1976، البحثان:
أ. غربة المتنبي
ب. المتنبي وحاسدوه.
٢١. المدخل في علم النفس: هاشم جاسم السامرائي، بغداد، 1988.
٢٢. مع المتنبي: طه حسين، دار المعارف بمصر، ط10.
٢٣. نظريات الشخصية: دوان شلتز، ترجمة د. محمد دلي الكربولي وآخر، مطبعة جامعة بغداد، 1983.
٢٤. نفسية أبي نواس: د. محمد النويهي، دار الفكر، ط2.
٢٥. يتيمة الدهر: للثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 2، مطبعة السعادة القاهرة، مجلد1، 1956.

المجلات والدوريات.

١. آفاق عربية، الجمهورية العراقية، السنة 3، العدد 4، كانون الاول، 1977.
المقالات :
أ. المتنبي وشعره، التناقض والحل: جبرا ابراهيم جبرا.
ب. بطاقة هوية جديدة لأبي الطيب المتنبي: عبد الوهاب امين.
ج. المتنبي والنفس: د. علي كمال.
٢. البحث النفسي في إبداع الشعر: ثامر حسن جاسم، الموسوعة الصغيرة، العدد 222، بغداد، 1986.
٣. مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد، عدد 10، نيسانن 1967، بحث (أضواء جديدة على نبوة المتنبي: د. حسام محي الدين الالوسي).
٤. المورد، عدد خاص، أبو الطيب المتنبي، وزارة الاعلام – العراق، المجلد 6، العدد3، 1977، البحثان:
أ. الجبال والأمكنة والمياه في شعر المتنبي: محمد علي الياس العدواني.
ب. حول نسب المتنبي: عبد المنعم محمد جاسم.